

أحلى قصائد الصوفية



بحري كاسر

89
30

أحلى قصائد الصوفية

دارالكتاب العربى

سوريه - دمشق - الحجاز

ش مسلم البارودى - مدخل فندق الشموع ط ١

هاتف : ٢٢٣٥٤٠١ - ٢٢٢٣٨١١

ص . ب : ١٣٣٤٤ فاكس : ٢٣٤٥٩٤

مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروة - شقة ١١

هاتف : ٣٩١٦١٢٢ فاكس : ٢٦٩٤٤٤٨

رقم الإيداع : ٩٧ / ٢٧٠٦

الترقيم الدولى : 3-22-5346-977

الطبع : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ ، ١٠ ش أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٠٣٦٠٩٨ - ٣٠٣١٠٤٣

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

مجدى كامل

أحلى قطائف الطوفية



لَقَدْ

إلى روح التصوف الكامنة
داخل كل منا.

مجلدي

تَقْدِيمٌ

لقد كان ظهور الشعر الصوفي في أدبنا العربي معاصراً لظهور التصوف ذاته. فقد عبر أوائل التصوف عن أنفسهم، وطرقهم، وحبهم الإلهي شعراً، كما لو كانوا قد اختاروا هذا الفن الأدبي الرفيع حتي يكون وسيلتهم في نشر التصوف وأصوله. ومنذ فجر التصوف، وحتى اليوم، يتخذ الصوفية من الشعر قالباً للتعبير عن "المحبة" التي تعني عندهم طريق الوصول إلي الله تعالى. وقبل أن نتحدث عن هذا اللون من الشعر الصوفي وخصائصه، يجدر بنا أن نعرف في البداية معني التصوف نفسه.

لقد عرف البعض التصوف علي أنه فلسفة المسلمين، علمهم في الأخلاق، كما قال آخرون إنه منطق المسلمين، وفي تحديد معني كلمة «التصوف» يطالعنا أكثر من رأي وتفسير، فهناك من يقول إن كلمة «التصوف» مأخوذة من كلمة «صوفيا» اليونانية، ومعناها، الحكمة.

وهناك من يقول ان الكلمة منسوبة إلي لبس الصوف الخشن الذي تعود الصوفية لبسه منذ القدم، وهناك من يقول هي نسبة إلي قبيلة «صوفة» التي كانت منقطعة لخدمة الكعبة، وهناك من يقول: ان الكلمة نسبة إلي «الصفة» وهي مكان بأخر مسجد الرسول ﷺ، وهناك من يقول، ان الكلمة نسبة إلي الصفاء والمصافاة.

وهناك من يقول غير ذلك من الآراء والتفاسير، ومهما كان القول والرأي فإن علماء الأخلاق والتهديب الروحي، يقولون، إن حقيقة التصوف الكاملة الفاضلة هي مرتبة «الاحسان» التي يفسرها الرسول عليه الصلاة والسلام في حديثه المشهور بقوله، «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ومعني هذا أن التصوف الصادق هو الذي يقوم علي اخلاص العبادة لله، بلا تصنع ولا تكلف، ودون رياء أو نفاق، وذلك يقتضي أن يكون الانسان مسلما حقا، وأن يكون مؤمنا صدقا، ويحسن الجمع بين اسلامه وایمانه، ويزينهما باحسانه واتقانه، عن طريق المراقبة لله، والمحاسبة للنفس، وقيل أن يصير الحساب إلي غيرها، كما قال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتهياؤا للعرض الأكبر، يوم تعرضون علي ربكم لاتخفي منكم خافية».

وهناك اصطلاحات صوفية تشير إلي هذه المعاني، كالصفاء وهو عند الصوفية يقصد به التوحيد الخالص الذي اقرت به كل الارواح قبل خلق الأجساد.

وهناك التواضع وهو واحد من أهم الاخلاق الصوفية التي يتحلي بها المبتدئ، والواصل علي السواء، وهو علاج لما جبلت عليه النفس من الكبر.

وهناك رموز صوفية كالخمر مثلاً ويقصد بها انوار الله والسكر ويقصد به سكر الارواح. وهناك ما يعرف عند الصوفية بتجلي الاسماء الالهية، وهي حالة من الترقى الصوفي، تكون بعد الفناء التام.

وينبغي أن نلاحظ أن التصوف ليس همهمات ولا تمتمات، وليس خروجا علي شريعة الله في قليل أو كثير، فالتصوف الصحيح أساسه التقيد بالقرآن والسنة، والخضوع لأوامر الله وأحكامه، وكل من خرج علي حكم الله وأمره، فدعواه أنه متصوف دعوي باطلة، لا يقرها شرع ولا عقل.

والتصوف ليس بالمظاهر والأشكال، ولا بلبس المرقعات أو تعليق المسابح، بل هو أن يعمر الإنسان صدره بالصلة بالله، والخوف منه، والرجاء فيه، والله جل جلاله يقول في سورة الطلاق: «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل علي الله فهو حسبه، ان الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شئ قدرا».

وهناك كثير من ادعاء التصوف يتوهمون أو يزعمون أن التصوف معناه عدم السعي أو عدم العمل، ويظنون أن التصوف كسل وبطالة، ونفور من الجهد والاجتهاد في شعاب الحياة الفاضلة الطيبة، ولو قبلنا هذا التصوير المنحرف للتصوف لكان نكبة علي المجتمع الاسلامي، وكان ثمردا علي توجيه الحق جل جلاله الذي يقول في سورة الجمعة، «إذا

قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، وابتغوا من فضل الله وأذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون».

ويظهر أن الذين حملوا علي التصوف وأهله تلك الحملة القاسية الشعواء، كانوا متأثرين بتلك الصورة التي رسمها للتصوف أولئك الادعياء الذين لم يصدقوا في إيمانهم واحسانهم، ولم يتقنوا العمل الجامع بين خيرى الدنيا والآخرة. مع أن الأثر الاسلامي الحكيم يقول: «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا».

وعلي الرغم من أن البعض يرجع بأصول التصوف إلي أيام الصحابة، بل إلي أيام النبوة، الا أن الأكثر شيوعاً بين الباحثين هو أن البداية الحقيقية للتصوف كنمط متفرد من التقرب إلي الله كان ابان القرنين الثاني والثالث الهجريين. وهما القرنان اللذان شهدا ميلاد الشعر الصوفي، وهكذا فإن بدء الشعر الصوفي، هو نفسه بدء التصوف.

وما أن جاء القرن السادس، حتي كان الشعر هو أكثر أدوات التعبير الصوفي شيوعاً. والحب الصوفي هو أكثر ما يميز به شعر الصوفيين، ويجعل من أشعارهم قصائد نورانية تخلب اللب، وتستحوذ علي القوادم.

فالحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات الالهية موضوعاً يدور حوله، وفيه يصف الحب ولذته، وما يجده من لوعة وأسى أو قرب ووصال. وكذلك ما يمر به في تصوفه من مقامات وأحوال، ومجاهدة مستمرة للنفس، وما يتعرض له من فيض رباني، والهام قلبي، وسمو روحي.

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب الصوفي الالهى الغامر الذي نراه ينقسم شقين: شق يتعلق بحب الله تعالى للعبد.. وآخر يتعلق بحب العبد لله، وكلاهما أفاض فيه الشعراء الصوفيون.

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء علي عدد من أشهر شعراء الصوفية، الذين قدموا للإنسانية نتاجاً شعرياً رائعاً وتراثاً إنسانياً خالداً آمليين من المولى عزوجل ان يحظى برضاك، واستحسانك.

مجدى حسين كامل

أَحْنُ بِأَطْرَافِ النَّهَارِ صَبَابَةٌ
وَبِاللَّيْلِ يَدْعُونِي الْهَوَى فَأَجِيبُ
وَأَيَّامُنَا تَفْتِنِي وَشَوْقِي زَائِدٌ
كَأَنَّ زَمَانَ الشَّوْقِ لَيْسَ يَغِيبُ
« سَمْنُونُ الْمَحَبِّ »

هذا الشاعر الصوفي الذي عاش في بغداد وتوفي فيها سنة ٢٩٨ هـ صاحب مدرسة شعرية متفردة، يصعب تجاهلها، سواء عند الحديث عن الشعر العربي، بوجه عام، أو الصوفي علي وجه الخصوص. وسمنون المحب ليس هو اسم شاعرنا الحقيقي، وإنما كان هذا هو اللقب الذي أطلقه عليه معاصروه، لأنه توقف أمام المحبة، فجعلها طريقه للوصول إلي الله، ووصل فيها إلي منتهي المنتهي.

كما كان سمنون المحب ينسج في المحبة الالهية غزلياته، حتي أصبح معروفا بتخصصه في المحبة، متفردا في الحديث عنها بلسان العاشق، لدرجة أنه إختص باسم «المحب»، دون سائر شعراء الصوفية ممن عاصروه.

كما أنهم وصفوا كلامه بأنه «أحسن كلام، وشعره لا يدور الا عن الصد والهوي والجفا والصبر والرجا والوجد والعتاب والشوق والوصال والبين والبكاء والعذاب والصبابة».

يروى «الهجويري» في كتابه «كشف المحجوب» عن سمنون المحب وكراماته، أن سمنون كان عائدا من الحج، فتوقف بمدينة «فيد» فطلب أهلها منه أن يحدثهم، ولما اعتلي سمنون المنبر، وجد نفسه يتحدث والناس يتشاغلون فيما بينهم فلا يستمع اليه أحد، فالتفت سمنون إلي قناديل المسجد وقال، «اني أتحدث اليك».. فاصطكت القناديل وتحطمت كلها.

ولكن «سمنون المحب» لم يكن لقب شاعرنا الوحيد، فهناك لقب آخر أطلقه هو علي نفسه هو «سمنون الكذاب» ووراء ذلك قصة يرويها المؤرخون، وتبدأ ببسيتين من الشعر أنشدتهما سمنون علي النحو التالي:

وليس لي سواك حظٌ فكيفما شئتَ فامتحنني
ان كان يرجو سواك قلبي لانلتُ سُؤلي ولا التمني

ويقال انه لم يكد سمنون ينشد بيتيه هذين، حتي ابتلي باحتباس البول وذلك هو الامتحان، وأخذ يتلوي من الألم، ويدور في الكتائب، يرجوا الصبية أن يدعوا الله أن يعجل بشفائه قائلاً: ادعوا لعمكم الكذاب، اشارة إلي تراجع عما قاله في بيتيه، واظهاره للجزع، والتأدب بأداب العبودية. وعندما أطلق بوله قال: يارب تبت اليك، أي تبت عن طلب الامتحان.

ويتفرد سمنون المحب دون غيره من شعراء الصوفية بأن معظم أشعاره عبارة عن ترانيم عشق قصار، فلا يوجد في شعره قصيدة مطولة، بل مقطوعات متفرقة لاتزيد الواحدة علي أربعة أبيات.

وستقدم هنا بعض المقطوعات الشعرية المتفرقة التي تعبر عن الارتباط الوثيق بين الشعر والمحبة عند سمنون، وكيف كان هذا الشعر رقيقاً للغاية، وكيف كان سمنون نفسه يبرر هذه الرقة بقوله: لايعبر عن الشيء الا بما هو أرق منه، ولاشيء أرق من المحبة.

حنين قلوب العارفين إلي الذكر	وتذكارهم وقت المناجاة للسر
ولاغيش إلا مع رجال قلوبهم	تحن إلي التقوي وترتاح للذكر
أديرت كؤوس للمنايا عليهمو	فأغفوا عن الدنيا كاغفاء ذي السكر
همومهمو جواله بمعسكر	به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسادهم في الأرض قتلي بحبه	وأرواحهم في الحُجب نحو العلا
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم	وما عرجوا عن مس بؤس ولا ضر
سكونُ إلي روح اليقين وطيبه	كما سكن الطفل الرضيع إلي الحِجر
بكيثُ ودمع العين للنفس راحة	ولكن دمع الشوق يُنكي به القلب
وذكرى لما ألقاه ليس بنافعي	ولكنه شيء يهيجُ به الكرب

فلو قيل ما أنت؟ لقلتُ مُعَذَّبٌ
بليتُ بمن لا أستطيع عتابه
بنار مواجيد يُضرمُها العتبُ
ويعتُبني حتي يُقال لي الذنبُ

* * *

أفديكَ بل قل أن يفديكَ ذو دنفٍ
بي منك شوقٌ لو أن الصخر يحمله
هل في المذلة للمشـتاق من عارٍ
تفطر الصخر عن مُستوقد النارِ
قد دبَّ حبُّكَ في الأعضاء من جسدي
ولا تنفستُ الا كنت مع نفسي
ديب لفظي من رُوحِي وإضمـاري
وكل جارحة من خاطري جاري

* * *

ضاعفٌ عليّ بجهـدك البلوي
واجهدْ وبالغْ في مهاجرتي
وابلغْ بجهـدك غاية الشكوي
واجهرْ بها في السرِّ والنجوي
فاذا بلغت الجهدَ في فلمْ
فانظرْ فهل حالٌ بي انتقلت
عما تُحب بحالةٍ أخري

* * *

وكان قلبي خاليًا قبل حبكم
فلما دعا قلبي هواك أجابه
وكان بذكر الخلق يلهو ويمزحُ
فلمستُ أراه عن فنـانك يبرحُ
رُميت بين منك ان كنتُ كاذبًا
وان كان شيءٌ في البلاد بأسرها
فلن شئت وأصـلني وان شئت لاتصلُ

* * *

تجرعتُ من حاله نـعمي وأبؤسا
فكم غمرة قد جرعتني كؤوسها
زمانٌ إذا أمضي عزَّ إليه أحتسي
فجرعتها من بحر صبري أكؤسا

تدرّعتُ صبري والتحفتُ صروفي وقلتُ لنفسي الصبر أو فاهلكي أسي
خطوبٌ لو أن الشمَّ زاحمٌ خطبها لساختُ ولم تدرك لها الكفُّ ملمسا

* * *

أنا راضٍ بطول صدِّك عنِّي ليس إلا لأن ذاك هواكــــــــــــــــا
فامتحنُ بالجفا صبري علي الودُّ ودعني معلقاً برجاًكا

* * *

شغلتَ قلبي عن الدنيا ولذتها فأنتَ والقلبُ شيءٌ غير مفترقٍ
وماتطابقتِ الأحداقُ من سنّةٍ إلا وجدتكُ بين الجفن والحدقِ

* * *

ولو قيل طأ في النار أعلمُ أنه رضي لك أو مُدِّن لنا من وصالكا
لقدمتُ رجلي نحوها فوطئتها سروراً لأنّي قد خطرتُ ببالكا

* * *

أحنُّ بأطرافِ النهارِ صباةً وبالليل يدعوني الهوي فأجيبُ
وأيامنا تُفني وشوقي زائدٌ كأنَّ زمانَ الشوقِ ليس يغيبُ

* * *

يعاتبني فينبسط انقباضي وتسكن روعتي عند العتابِ
جري في الهوي مُذ كنتُ طفلاً فمالي قد كبرتُ علي التصابي

* * *

أَمْسِي بِخَدِّي لِلدَّمْعِ رَسُومٌ أَسْفَاً عَلَيْكَ وَفِي الْفَوَادِ كَلُومٌ
وَالصَّبْرُ يَحْسُنُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ

* * *

أَنْتَ الْحَبِيبُ الَّذِي لَأَشْكُ فِي خَلْدٍ مِنْهُ، فَإِنْ فَقَدْتُكَ النَّفْسُ لَمْ تَعِشِ
يَا مَعْطِشِي بَوْصَالٍ أَنْتَ وَاهِبُهُ هَلْ فِيكَ لِي رَاحَةٌ إِنْ صِحْتُ، وَاعْطِشِي

* * *

كَانَ لِي قَلْبٌ أَعِيشَ بِهِ ضَاعَ مِنِّي فِي تَقْلُبِهِ
رَبِّ فَارْدَدْهُ عَلَيَّ فَقَدْ ضَاقَ صَدْرِي فِي تَطْلُبِهِ
وَأَغْثَ مَادَامَ بِي رَمَقٌ يَاغِيَاتِ الْمُسْتَفْهِثِ بِهِ

* * *

يا واهج الحسن..

أحلي الهوي أن يطولَ الوجدُ والسقمُ
وأصدق الحب ما حلت به التهمُ
ليتَ الليالي أحلامًا تمودُ لنا
فربما قد شفي داءَ الهوي الحلمُ
« عفيف الدين التلمساني »

ينتسب عفيف الدين التلمساني إلى "تلمسان". وكان ميلاده بها سنة ٦١٠هـ ويرجع أصله إلى احدي عوائل الكوفة، وتنقل كثيرا في البلاد، حتي وصل مصر وأقام فيها، وأنجب ابنه الشاعر المشهور شمس الدين التلمساني.

ويعد العفيف التلمساني - كما كان ينادي - من الصوفية الذين أثاروا الجدل، ودخلوا في معارك فكرية، وفلسفية، انتهت باتهامه بالكفر والزندقة، وبأنه من أتباع ابن عربي، ومن القائلين بوحدة الوجود، إلى الدرجة التي أطلق عليه ابن تيمية «الفاجر التلمساني» الملقب بالعفيف.

ولكن التلمساني كان رغم جميع اتهامات خصومه شاعرا كبيرا، وكان له شعر غزلي يشرحه شرحا صوفيا علي طريقته، ولكن حتي هذا الشعر لم يسلم من نقد عماء عصره، الناقمين عليه، حتي انه قيل عنه من جانب أحدهم «لحم خنزير في طبق صيني» نسبة إلى جمال وجودة قلبه الشعري.

ولم يترك التلمساني شعرا كثيرا عقب وفاته سنة ٦٩٠هـ، اللهم بعض المقاطع الشعرية المتناثرة هنا وهناك، أو الأبيات. ومن شعره الصوفي يقول:

يا غائبين ووجدي حاضرا بهم وعائنين وذنبني في الغرام هم
بتتم فلا طرف الا وهو مضطرب شوقا ولا قلب الا وهو مضطرم

وهناك أبيات رائعة تعكس مدي ماكان يتمتع به التلمساني من حس شعري، وقدرة علي صياغة أفكاره الصوفية بطريقة محكمة، وفي أسلوب عذب، يدخل القلب بلا عناء. يقول التلمساني في هذه الأبيات الحلوة:

أبدًا بذكركَ تنقضي أوقاتي ما بين سَمّاري وفي خلواتي
يا واحدَ الحسنِ البديعِ لذاته أنا واجدُ الأحزانِ فيكَ لذاتي
ويحبك اشتغلت حواسي مثلما بجمالِكَ امتلأتُ جميعُ جهاتي

حسبي من اللذات فيك صباية
ورضاي أني فاعل برضاك ما
عندي اشتغلت بها عن اللذات
تختار من محوي ومن إثباتي

* * *

يا حاضراً غابت له عاشقه
حاسبت نفسي فلم أر واحداً
عن كل ماض في الزمان وآت
منها خلا وقتاً من الأوقات

* * *

ويقول عفيف:

مَنَعَتْهَا الصِّفَاتُ وَالْأَسْمَاءُ
قَدْ ضَلَلْنَا بِشَعْرِهَا وَهُوَ مِنْهَا
كَيْفَ بَنَيْنَا مِنَ الظُّلْمِ تَشَاكِي
كَمْ بَكَيْنَا حُزْنًا بَمَنْ لَوْ عَرَفْنَا
نَحْنُ قَوْمٌ مِثْلُنَا وَذَلِكَ شَرْطٌ
وَأَقَامَتْ نُفُوسَنَا فِي حِمَاها
فَالْمُلْبِّي إِذَا دَعَتْ هِيَ مِنَّا
يَا أَبَا الْخَبْرِ قُمْ لَكَ الْخَيْرُ فَاطْرِبْ
لَا تَقُتْ كَأْسَكَ الَّتِي مِنْ لَمَاهَا
لَمْ أَقُلْ قَدْ عَدْتُكَ كَأْسَكَ لَكِنْ
إِنَّمَا يَشْرَبُ الَّتِي تَسْلُبُ الْعَقْلَ
أَسْكُرُوهَا بِهِمْ كَمَا أَسْكُرْتَهُمْ
أَنْ تُرَى دُونَ بُرْقِعِ الْأَسْمَاءِ
وَهَدَّتْنَا بِهَا لَهَا الْأَضْوَاءُ
بِالْقَوَمِ وَفِي الرَّحَالِ الْمَاءُ
كَانَ مِنْ شِدَّةِ السَّرُورِ الْبُكَاءُ
فِي هَوَاهَا فَلْيَيْسَسِ الْأَحْيَاءُ
لَا بِنَا بَلْ بِهَا لِيَصْفُو الصِّفَاءُ
وَمُحِبُّونَهَا بِهَا الْأَصْدَاءُ
مَسْمَعِ الْفَقِيرِ مِنْكَ ذَاكَ الْغِنَاءُ
هِيَ فِيهَا تَنَافَسَ النُّدَمَاءُ
رَبِّمَا طَوَّحَتْ بِكَ الصَّهْبَاءُ
نَدَامِي هُمْ لَهَا أَكْفَاءُ
فِي ابْتِدَائِهِمْ بِهَا فَتَمَّ الْوَفَاءُ

فَجَزَاءُ مِنْهَا وَمِنْهَا وَمِنْهُمْ وَفَاقٌ
قَدْ تَسَمَّتْ بِهِمْ وَلَيْسُوا سِوَاهَا
ويقول:

أَيْنُكُرُ الْوَجْدُ أَنِّي فِي الْهَوَى شَحْبُ
وَمَا سَلَوْتُ كَمَا ظَنَّ الْوِشَاءُ وَلَا
فَإِنْ بَكَى لِصَبَابَاتِي عَذُولُ هَوَى
نَاشِدْتُكَ اللَّهُ يَا رُوحِي أَذْهَبِي كَلْفَا
لَا تَسْأَلِيَهُمْ ذِمَامًا فِي مَحَبَّتِهِمْ
هُمْ أَهْلُ وَدِّي وَهَذَا وَاجِبٌ لَهُمْ
هُمْ الْبَسُونِي سِقَامًا مِنْ جُفُونِهِمْ
وَصِيرَتْ أَدْمُعِي حُمُرًا خُدُودُهُمْ
هَلِ السَّلَامَةُ إِلَّا أَنْ أَمُوتَ بِهِمْ
إِنْ يَسْتَلْبُوا الْبَعْضَ مِنِّي فَالْجَمِيعُ لَهُمْ
لَوْ تَعَلَّمُ الْعَذَابَاتُ الْمَائِسَاتُ بِمَنْ
وَلَوْ دَرَى مَنَهْلُ الْوَادِي الَّذِي وَرَدُوا
إِنِّي لَا كُنْتُ أَنْفَاسِي إِذَا ذُكِرُوا
وَتُرْسِلُ الدَّمَعُ عَيْنِي فِي مَنَازِلِهِمْ
كَذَا لِكُلِّ مَحَبٍّ غَيْرَةٍ لَهُمْ
أَسْأَلُ الْبَانَ عَنْ مِيلِ النَّسِيمِ بِهِمْ
وَتِلْكَ أَثَارُ لَيْنٍ مِنْ قُدُودِهِمْ

وَوَفَاقٌ مِنْهَا وَمِنْهُمْ جَزَاءُ
فَالْمُسَمَّى أُولَئِكَ الْأَسْمَاءُ

وَدُونَ كُلِّ دُخَانٍ سَاطِعٍ لَهَبُ
أَسْلُو كَمَا يَتَرَجَّى الْعَاذِلُ التَّعَبُ
فَلِي بِمَا مِنْهُ يَبْكِي عَاذِلِي طَرْبُ
بِحُبِّ قَوْمٍ عَنِ الْجُرْعَاءِ قَدْ ذَهَبُوا
فَطَالَمَا قَدْ وَفَا بِالذِّمَّةِ الْعَرَبُ
وَأِنَّمَا وَدُّهُمْ لِي فَهُوَ لَا يَجِبُ
أَصْبَحْتُ أَرْفُلُ فِيهِ وَهُوَ يَسْحَبُ
فَكَيْفَ أَجْحَدُ مَا مَنُّوا وَمَا وَهَبُوا
وَجَدًا وَإِلَّا فَبُقْيَايَ هُوَ الْعَطْبُ
وَأِنْ أَشْرَفَ أَجْزَائِي الَّذِي سَلَبُوا
قَدْ بَانَ عَنْهَا إِذْنُ مَا اخْضَرَّتِ الْعَذَبُ
مَنْ وَارِدُوا مَائِهِ لَا هَتَرَهُ الطَّرَبُ
كَيْلًا يَحْرِقُهُمْ مِنْ زَفَرَتِي اللَّهَبُ
كَيْلًا تُسَابِقُهَا فِي سَحَابِ السُّحُبُ
وَعِنْدَ كُلِّ غَيُورٍ فِطْنَةٌ عَجَبُ
سَوَّالٍ مَنْ لَيْسَ يُدْرِي فِيهِ مَا السَّبَبُ
مَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ فَاهْتَزَّتْ لَهَا الْقُضْبُ

وارحمتاً للحاشقين..

يا صاح ليس علي الحب ملامة
ان لاح في أفق الصبح صباح
لاذنب للعشاق ان غلب الهوي
كتمانهم، فما الغرامُ، فباحوا
« السهروردي »

يلقب شهاب الدين السهروردي عادة بـ"الصوفي القليل"، نسبة إلى مقتله بأمر من صلاح الدين الأيوبي بعد أن اتهمه عدد من خصومه من علماء حلب بالكفر والخروج على السنة. وقد حاول البعض ومنهم ابن صلاح الدين الملك الغازي انقاذه، نظرا لما يجمعهم به من صداقة، دون جدوي، حيث أصر خصوم السهروردي علي تنفيذ أمر القتل، وهكذا لقي حتفه.

ويري البعض أن خطأ السهروردي الوحيد كان هو محاولته الخوض في فلسفة الدين في عصر ليس لدي علمائه استعداد لذلك، كما كان تصوفه يختلف كثيرا عن أقرانه، مما قلبهم عليه، فعملوا بالتخلص منه، وهو لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره.

ورغم سني عمر السهروردي التي لم تتجاوز الأربعين إلا أنه ترك للمكتبة العربية والصوفية نحو ٤٩ كتابا معظمها في التصوف، ومنها «رسالة أصوات أجنحة جبرائيل»، و«كلمة التصوف»، و«مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم»، و«الغربة الغريبة»، و«الكلمات الذوقية والنكات الشوقية»، و«مؤنس العشاق»، و«الواردات الالهية»، و«البارقات الالهية والنعيمات السماوية»، و«لوامع الأنوار».

ومع ذلك يبقى كتاب «حكمة الاشراق»، الذي ضمنه السهروردي فلسفته في التصوف «الاشراقية» هو أهم كتبه، وهي امتداد للسلسلة التي بدأها الحلّاج، الذي ورد ذكره في احدي مواضع هذا الكتاب، وهو (السهروردي) يدعوه باسم «أخيه»، ويؤلف كتبه في شكل توجهات صوفية، وعلي هيئة رؤي.

وللسهروردي الذي ولد بـ«سهرورد» من أعمال «زنجان» أشعار رائعة، كلها يفيض رقة وعلوبة، في إطار فلسفي، وروحاني، قد لا يضاهيه غيره.

وسوف نقرأ معاً احدي نورانيات السهروردي، وهي بعنوان «وارحمنا للعاشقين»:

أبدًا تحن إليكم الأرواح ووصالكم ربحانها والراحُ
وقلوبُ أهلٍ وداذكُم تشنّاقكمُ وإلي بهاء جمالكُم ترتاحُ
وارحمتا للعاشقين تحمّلوا ثقل المحبة والهوي فضّاحُ

* * *

أهل الهوي قسّمان: قسم منهمو كتموا، وقسمٌ بالمحبة باحوا
فالباحثون يسرهم شربوا الهوي صرّفًا فهزهموا الغرام فباحوا
والكتمون لسرهم شربوا الهوي ممزوجةً فحمتهمو الأقداحُ

* * *

بالسر إن باحوا تباحُ دماؤهم وكذا دماء البائحين تُباحُ
وإذا همو كتموا تحدّث عنهمو عند الوشاة المدمعُ السّفاحُ
ويدت شواهدُ السّقام عليهمو فيها لمشكل أمرهم إيضاحُ
خُفض الجناحُ لكم، وليس عليكمو للصبّ في خُفض الجناحُ جناحُ
فإلي لقاكم نفسهُ مرتاحةٌ وإلي رضاكم طرفُهُ طماحُ
عودو النور الوصل من غسق الدجي فالهجر ليل والوصال صباحُ

* * *

صافاهمو فصفوا له، فقلوبهم في نورها المشكاة والمصباح
وتمتعوا فالوقت طاب بقربكم راق الشراب وراق الأقداح
ياصح ليس علي المحب ملامة إن لاح في أفق الصباح صباحُ

* * *

لانسب للعشاق ان غلب الهوي
 سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها
 ودعاهم وداعي افحقائق دعوة
 كتمانهم، فما الغرام، فباحوا
 لما دروا أن السماح رباح
 فغدوا بها مستأنسين وراحوا

* * *

ركبوا علي سفن الوفاء، ودموعهم
 والله ما طلبوا الوقوف ببابه
 لا يطربون لغير ذكر حبيبهم
 بحر، وشدة شوقهم ملاح
 حتى دعوا، وأتاهموا المفتاح
 أبدا، فكل زمانهم أفراح

* * *

حضرنا وقد غابت شواهد ذاتهم
 أفناهمو عنهم كشفت لهم
 فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم
 فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
 حجب البقا فتلاشت الأرواح
 ان التشبه بالكرام فلاح

* * *

أيامنا بلقائكم أفراح
 قل للمحب إذا تهتك في الهوي
 واخلع عذارك لاتبال بعاذل
 وجميع أيام الملاح ملاح
 ان التهتك في الغرام مباح
 واخلع عذارك لاتبال بعاذل

* * *

أهل المحبة حين طاب شرابهم
 شربوا كؤوس الحب في حان الصفا
 بالانكسار تحملوا في حبه
 باعوا النفوس لحبهم وارتاحوا
 فتمايلت سكرها بها الأرواح
 فبدا عليهم من رضاه سماح

* * *

وأنا لهم من فضله الفتاح	خلع الحبيب عليه خلع الرضا
فشذاهمو من عطره فواح	ملاً الحبيب قلوبهم من نوره
وتزول عند لقاءهم الأتراح	تحبي الحبيب ذكرهم وبنورهم
وتحبهم، ويحبهم ترتاح	كل القلوب لهم تحن تشوقا

* * *

الوسيلة..



شربت بكاسات الغرام سلافة
وصرت أنا الساقى لمن كان حاضرا
بها انتعمشت روحي وجسمي ومهجتي
أدير عليهم كرة بعد كرة
« عبدالقادر الجيلانى »

الامام محيي الدين عبدالقادر الجيلاني أحد الذين نالوا مكانة رفيعة في تاريخ التصوف، ووضعوا قواعد طريقتهم الصوفية، التي نشرها أتباعه بعد وفاته في بغداد سنة ٥٦١هـ ولم يكن الامام الجيلاني شاعرا بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما كان - كما يري بعض المؤرخين - الشعر عنده أداة تناسب التعبير عن المعاني الصوفية.

كما أن الإمام الجيلاني الذي ولد في «جيلان» وراء طبرستان، سنة ٤٧١هـ وعاش ومات في بغداد ولم تعرف له أية دواوين مطبوعة، ولا مخطوطة، وإنما بضعة قصائد متفرقة هنا وهناك، قام مشكورا بجمعها الأستاذ الجليل يوسف زيدان في ديوان كبير إختار له اسم «ديوان الجيلاني».

وفي شعر الجيلاني الحنبلي المذهب الذي عمل بالتدريس والإفتاء، نجد حقائق التصوف وقد إختبأت بين حروف الكلمات، ويشار إليها تلويحا وتلميحا لنفس الأسباب، التي جعلت شعر الصوفية رمزيا.

ومن أهم قصائد ديوان الجيلاني رائعته المعروفة باسم «الوسيلة»، وتقع في ٤٨ بيتا، وهي تعبير - كما يقول الباحث الجليل «يوسف زيدان» الذي قلم بجمعها - عن فرط المحبة وفيضان الوجد، وقد عمد الامام فيها إلي الرموز الصوفية كالخمر والحان والكأس، وغير ذلك من الرموز الحسية، التي طالما أشار بها الصوفية لمعانيهم الدوقية.

وها هي ذى «الوسيلة» بأبياتها التي تمثل أحد روائع الشعر الصوفي:

ولما صفا قلبي وطابت سريرتي	وناد مني صحوي بفتح البصيرة
شهدتُ بأن الله مولى الولاية	وقد منَّ بالتصريف في كُلِّ حالة
سقاني الهي من كئوس شرابه	فأسكرني حقاً فهمتُ بسكرتي

وحكمني جمع الدنان بماحوي
وفي حاننا فأدخل نر الكأس دائراً
وكل ملوك العالمين رعيتي
وما شرب العشاق الا بقيتي

* * *

رفعت علي من يدعي الحب في الوري
وجالت خيولي في الأراضي جميعها
ودقت لي الريات في الأرض والسما
وشاءوس ملكي سار شرقاً ومغرباً
فمن كان مثلي يدعي فيكم الهوي
يطاولني إن كان يقوي لسطوتي
فقربني المولي وفزت بنظرة
وزقت لي الكاسات من كل وجهة
وأهل السما والأرض تعلم سطوتي
فصرت لأهل الكرب غوثاً ورحمة
فمن كان مثلي يدعي فيكم الهوي

* * *

أنا كنت في العلياً بنور محمد
شربت بكاسات الغرام سلافة
وصرت أنا الساقى لمن كان حاضراً
وقفت بيباب الله وحدي موحداً
ونوديت يا جيلاني: أدخل الحضرتي
عطيت اللوا من قبل أهل الحقيقة
وفي قاب قوسين اجتماع الأحبة
بها انتعشت روعي وجسمي ومهجتي
أدير عليهم كرة بعد كرة
ونوديت يا جيلاني: أدخل الحضرتي
عطيت اللوا من قبل أهل الحقيقة

* * *

ذراعي من فوق السموات كلها
وأعلم نبت الأرض كم هو نبنة
وأعلم علم الله أحصي حروفه
وماقلت هذا القول فخرأ وإنما
وماقلت حتي قيل لي قبي ولا تخف
ومن تحت بطن الحوت أمددت راحتي
وأعلم رمل الأرض عدداً لرملة
وأعلم موج البحر عدداً لموجة
أني الإذن حتي تعرفوا من حقيقتي
فأنت ولي في مقام الولاية

* * *

أنا كنت مع نوحٍ أشاهد في الوري
وكننت وإبراهيم ملقي بناره
وكننت مع إسماعيل في الذبح شاهداً
وكننت مع يعقوب في غشو عينه
وكننت مع ادريس لما ارتقي العلا
بحاراً وطوفاناً علي كف قد رتي
وما برد النيران إلا بدعوتي
وما أنزل المذبح إلا بفتيتي
وما برئت عيناه إلا بتفليتي
وأسكن في الفردوس أحسن جنة

* * *

وكننت وموسي في مناجاة ربه
وكننت مع أيوب في زمن البلاء
وكننت مع عيسي وفي المهدي ناطقاً
ولي نشأة الحب من قبل آدم
أنا الذاكر المذكور ذكراً لذاكر
وموسي عصاه من عصاي استمدت
وما برئت بلواه إلا بدعوتي
وأعطيت داوداً حلاوة نغمتي
وسري سري في الكون من قبل نشأتي
أنا الشاكر المشكور شكراً بنعمتي

* * *

أنا العاشق المعشوق في كل مضمير
أنا الواحد الفرد الكبير بذاته
ملكنت بلاد الله شرقاً ومغرباً
وقالوا: فأنت القطب - قلت مشاهداً
وناظر ما في اللوح من كل آية
أنا السامع المسموع في كل نغمة
أنا الواصف الموصوف - علم الطريقة
وان شئت أفنيت الأنام بلحظة
وتال كتاب الله في كل ساعة
وما قد رأيت من شهود بمقلتي

* * *

فمن كان يهوانا يجي لمحلنا
فلا عالم إلا بعلمي عالم
ويدخل حمي السادات يلق النغمة
ولا يسالك إلا بفرضي وسنتي

ولا جامعٌ إلا ولي فيه ركمةٌ
ولولا رسولُ اللهِ بالعهدِ سابقٌ
مُرِيدِي لك البشري تكون علي الوفا
مُرِيدِي تمسك بي وكن بي واثقًا
وكن يامُرِيدِي حافظًا لمهودنا
وإن شحتُ الميزانُ كنت أنا لها
حَوَائِجُكُمْ مُقْضِيَةً - غيرَ أَنِّي
وأَوْصِيكُمْ كسر النفوس فإنَّها
ومنْ حدثته نفسه بتكبرٍ
ومن كان في حالاته متواضعًا
ولامنبرٌ إلا ولي فيه خُطْبَتِي
لأغْلَقْتُ أبوابَ الجحيمِ بعظمتِي
وإن كنتَ في هَمٍّ أغشك بهِمَّتِي
لأحميكَ في الدنيا ويومَ القيامةِ
أكن حاضرَ الميزانِ يومَ الوقيةِ
بعينِ عناياتٍ ولطفِ الحقيقةِ
أريدُكُمْ وتمشونَ طُرُقَ الحميدةِ
مراتبَ عزٍّ عند أهلِ الطريقةِ
تجدهُ صغيراً في عيونِ الأقلّةِ
مع الله - عزَّتهُ جَمِيعُ البريةِ

مريضة الأجفأ..

وقفأ بي علي الطلول قليلا
نتبأكي، بل أبك مما دهاني
الهوي راشقي بغير سهام
الهوي قاتلي بغير سنان
« ابن عربي »

هذا هو شيخ الصوفية الأكبر بلا منازع. انه أيضا
الفيلسوف الصوفي الأول، وأكثر أعلام الصوفية اثارة
للجدل في عصره، وماتلته من عصور. انه أبوبكر محمد
بن علي، وشهرته محيي الدين قال فيه محبوبه: انه
القطب والعارف بالله والولي، وقال فيه أعداؤه: انه
الزنديق والمشرک.

وينحدر هذا القطب الصوفي الكبير من قبيلة حاتم الطائي، واسمه «المرسي»، حيث
كانت ولادته بـ«مرسية» ببلاد الأندلس سنة ٥٦٠هـ، وأيضا عرف هناك باسم «ابن
سراقة»، أما في الشرق فقد أعطوه اسم «ابن عربي» بدون أداة التعريف تمييزا له عن
القاضي أبي بكر ابن العربي المتوفي سنة ٥٤٣هـ.

وقد عاش ابن عربي بأفكاره، ومواقفه، بفلسفته، ومذهبه، حياة حافلة كانت تثير غيرة
خصومه وجلبت عليه الكثير من العداوات، والخصومات، إلي حد إتهامه ذات مرة
«بالكفر والاحاد» أثناء اقامته بمصر واصدار حكم عليه بالموت إلا أنه نجا من القتل
باعجوبة!

ولابن عربي مؤلفات أربعمئة قد لا يفوقها شهرة أي من مؤلفات الصوفية الأخرى،
وأشهر هذه المؤلفات موسوعته الكبرى في التصوف التي أطلق عليها اسم «الفتوحات
المكية»، ويليه في الأهمية كتاب «فصوص الحکم»، وهو الذي ألب عليه الفقهاء،
وأشهرهم الامام ابن تيمية، وهناك أيضا كتابه «التفسير الصوفي للقرآن».

ولم يكن ابن عربي الذي استقر نهاية حياته في دمشق حتي توفي ودفن بسفح جبل
«قاسيون»، مجرد قطب من أقطاب الصوفية، وإنما كان رائدا من رواد مدرستهم
الشعرية، يصدق في سماء الروح، ويغرد في عوالم النفس، وله أشعار كثيرة أعذبها
ما جاء في ديوانه «ترجمان الأشواق» إحدي رائعات الغزل الصوفي.

وفي قصائد ابن عربي مشاهدة صوفية تظل النفس فيها مأخوذة بالجمال الالهي
تجلياته في الموجودات، فتحب الله في كل شيء، كما تحب كل شيء من أجل الله،

ويستغرقها الحب لله، فاذا جاءت الغزليات لهند، أو ليلي أو سعاد مثلاً فإنما المقصود هو الله، فهو وحده الجمال الحقيقي الجدير بالحب.

وسوف نعرض هنا لابن عربي قصيدته «مريضة الأجفان» وهي احدي رائعات شعره الخالد:

مرضي من مريضة الأجفان	عللاني بذكرها، عللاني
هفت السورق بالرياض وناحت	شجوا هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعوب تهادي	من بنات الخد وريين الغواني
طلعت في العيان شمساً، فلما	أفلت أشرفت بأفق جناني

* * *

ياطلولاً برامة دراسات	كم رأيت من كواعب وحسان
بأبي ثم بي غزال ريب	يرتعي بين أضلعي في أمان
ماعليه من نارها فهي نور	هكذا النور مخدم النيران

* * *

يا خليلي عرجا بعيناني	لأري رسم دارها بعيناني
فاذا ما بلغت الدار حطاً	وبها صاحبي، فلتبكياني
طال شوقي لطفلة ذات نشر	ونظام ومنبر وبیان

* * *

من بنات الملوك من دار فرس	من أجل البلاد من أصبهان
هي بنت العراق بنت إمامي	وأنا ضللتها سليل يمني
هل رأيتم ياسادتي أو سمعتم	أن ضللتين قط يجتمعان

* * *

وقفنا بي علي الطلول قليلاً ننبأكي، بل أبكِ مما دهاني
الهوي راشقي بغير سهام الهوي قاتلي بغير سنان
عرفاني إذا بكيتُ لديها تُسعداني علي البكا تُسعداني

* * *

وأذكر الي حديث هند ولبي وسلي سمي وزينب وعنان
ثم زيدا من حاجر وزرود خبراً عن مراتع الغزلان
واند باني بشعر قيس وليلي أكؤساً للهوي بغير بنان
والهوي بيننا يسوق حديثاً طيباً مطرباً بغير لسان
لرأيتم ما يذهب العقل فيه من والعراق معتقان

* * *

كذب الشاعر الذي قال قبلي وبأحجار عقله قد رماني
« أيها المنكح الثرياً سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استهلّت وسهيل إذا استهلَّ يمانِي

* * *

|||||

شاعرنا الصوفي شيخ العرب أبو العباسي السيد
أحمد البدوي القرشي الذي ولد بمدينة فاس بالمغرب سنة
٥٩٦ هـ، وتوفي في طنطا سنة ٦٧٥ هـ، صاحب
الطريقة الأحمدية التي كان لها أعمق الأثر في تاريخ
مصر دينيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا.

وقد هاجر السيد أحمد البدوي مع والده وأهله في صغره إلى مكة حيث تلقى علي
يد معلمها القرآن، والعلوم الشرعية، ثم هاجر إلى العراق ثم استقر به المقام في مصر
التي استقبلته أروع استقبال بعد أن بلغت شهرته الآفاق لغزارة علمه وقوة إيمانه، وتقواه،
وعندما استقر في طنطا تحولت بوجوده من قرية صغيرة إلى مدينة كبرى.

ومن أهم الآثار التي تركها السيد البدوي «حزبه» وهو عبارة عن دعاء وإبتهاال إلى الله
وإستعاذة به. وأيضا «أوراده» حيث تخصص الطريقة الأحمدية لكل ليلة وردا، وترتبط
الأوراد بالصلوات الخمس.

ومن آثاره أيضا «الوصايا» وهي مدعاة للتقوي، تحض علي الفضيلة، والإكثار من ذكر
الله والصلوة. وكذلك «الصلوات» وهي تسابيح لله.

إلهي أنت للاحسان أهل	ومنك الجود والفضل الجزيل
إلهي بات قلبي في هموم	وحالي لا يسر به خليل
إلهي تب وجد وارحم عبدا	من الأوزار مدمعه يسيل
إلهي ثوب جسمي دنسته	ذنوب حملها أبدا ثقیل

* * *

إلهي جُد بعفوك لي فاني	على الأبواب منكسر ذليل
إلهي حُفني باللفظ يامن	له الغفران والفيض الجزيل
إلهي خائنني جَلدي وصبري	وجاء الشيب واقترب الرحيل
إلهي داوني بدواء عفو	به يشفي فؤادي والغليل

* * *

إلهي ذاب قلبي من ذنوبي
 إلهي ردّني برداء أنسي
 إلهي زحزح الأسواء عني
 إلهي سيدي، سندي وجاهي
 ومن فعل القبيح أنا القليلُ
 وأبسنني المهابة يا جليلُ
 وكن لي ناصراً نعم الكفيلُ
 فمالي غير عفوك لي مقيلُ

إلهي شتنت جيش إصطباري
 إلهي صرت من وجدي أنادي
 إلهي ضاع عمري في غرور
 إلهي طالما أنعمت منا
 هموم شرحها أبداً يطولُ
 أنا العصاة المسئ، أنا الذليلُ
 وفي لهو وفي لعب يطولُ
 بجود منك فضلاً يستطيلُ

إلهي ظاهراً أدعوك ربي
 إلهي عافني من كل داءٍ
 إلهي غافر الزلات يامنُ
 إلهي فهاز من ناداك ربي
 كذلك باطننا أنت الجليلُ
 بجواهٍ مُحمدٍ نعم الخليلُ
 تعالي، ماله أبداً مثيلُ
 أتاه الخير حقاً والقبولُ

إلهي قلت ادعوني أجيبكمُ
 إلهي كيف حالي يوم حشرٍ
 إلهي لا اله سواك ربي
 إلهي مسني ضرراً ضحي
 فهاك العبد يدعو يا وكيلُ
 إذا ماضاق بالعاصي مقيلُ
 تعالي، لأتمثله العقولُ
 به جسمي يلبله النحولُ

وَيَسْرُلِي أُمُورِي بِكَفِيلُ	إِلَهِي نَجِّنِي مِنْ كُلِّ كَرْبٍ
بَأَعْمَارِنَا، وَبِهَاتَزُولُ	إِلَهِي هَذَا الْأَوْقَاتِ تَمْضِي
خَتَامِي عِنْدَمَا يَأْتِي الرَّسُولُ	إِلَهِي وَالنِّي خَيْرًا، وَأَحْسَنُ
بَطْنِهِ مِنْ تَسِيرُهُ الْخُمُولُ	إِلَهِي يَا سَمِيعُ أَجِبْ دَعَائِي
صَلَاةً لَا تَحُولُ وَلَا تَزُولُ	فَصَلِّ عَلَيْهِ رَبِّي كُلَّ وَقْتٍ
وَفِي طَيِّ الْكَلَامِ هُوَ الْفَحُولُ	وَأَلِ الصَّحَابِ ذَوِي الْمَعَالِي

* * *

أطيار الجنان..

بكت عيني غداة الدمع دمعاً
وأخري بالبكا بخلت علينا
فماتت التي بخلت علينا
بأن غمضتها يوم التقينا!

« جلال الدين الرومي »

لقد كان الشاعر الصوفي الفارسي جلال الدين الرومي أحد أئمة التصوف، وعلماء من الأعلام البارزين في التصوف والوالنور طوعا ويسر عـدنى بالنوح الذي كان يعد من أكبر علماء عصره أيضا. وقد اختار الامام الرومي، الذي يتصل نسبه بأبي بكر الصديق، رضي الله عنه، التصوف سبيلا في حياته العملية، وإختره فلسفة روحية لفكره. وفنه الشعري الرفيع.

وشعر الرومي الذي عاش في القرن السابع الهجري (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ) البناء الذي يستمد عناصره من الانسان، ويتعمق في بحث مشاكله الروحية والعملية، ويحاول أن يرسم له المثل العليا في الفكر والعمل، يعني بالحياة التي يحياها البشر، كما يعني بالمصير، الذي يطمحون اليه.

وعلي الرغم من أن الرومي ليس مبدع هذا الاتجاه في التصوف، إلا أنه كان أفصح الألسنة في التعبير عنه، وألمع العقول في إبداع فلسفته، وإبتكار أفكاره.

ويعد كتاب جلال الدين الرومي الشهير «المنثوي» أشهر كتبه علي الإطلاق، وأحد عيون التراث الصوفي، وأعظم ما جاءت به قريحة الفرس، حتي عصرنا هذا. ورغم أنه كتب في أصله بالفارسية إلا أنه نظرا لأهميته ومكانته ومنزلته العظيمة، فقد كثرت حوله الشروح والتراجم في مختلف اللغات.

والمنثوي عبارة عن مجموعة مقطوعات مما يطلق عليه في الأدب الفارسي كلمة «غزل»، وهو مؤلف من ستة أجزاء، وقد خلا شعر جلال الدين كله من المدح للسلطين. ويقول الرومي في مقدمة الكتاب: «المنثوي»: هذا الكتاب أصول الدين، في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرح الله الأزهر، وبرهان الله الأظهر، مثل نور مشكاة فيها مصباح، يشرق اشراقا أعظم نورا من الاصباح، وهو جنان



لننان، ذو العيون والأغصان.. الأبرار فيه يأكلون ويشربون، والأحرار فيه يفرحون،
ويطربون وهو كنيل مصر شراب الصابرين، وحسرة علي آل فرعون الكافرين».

ويعد شعر جلال الدين الرومي كما هو الحال في قصصه وحكاياته التي وردت في
كتابه «المنثوي» إنعكاسا لطريقته في معالجة الأسرار الخلقية، وحل رموز التصوف
الرقيقة، والإبانة عن الخفايا من الحكم والحظاظ البالغة.

إن شعر الرومي ما هو إلا تعبير عن الحقائق الصوفية وصورة مجسمة للعشق الالهي
رسالة العشق من البداية إلي النهاية، وعلي حد تعبيره «لو خلا قلب الانسان من العشق لم
يبق من آدميته، إلا صنم من لحم ودم بدل الحجارة، والشعب الخالي من العشق لا يعدو أن
يكون أكواما من التراب.

ومعظم شعر الزومي باللغة الفارسية اللهم إلا عددا من قصائده الذي نظمها باللغة
العربية، وهي أيضا لا يعوزها الإتقان والجمال اللفظي والروحي، ونذكر منها هذا
الآيات:

بكت عيني غداة الدمع دمعاً	وأخري بالبكا بخلت علينا
فعماتبت التي بخلت علينا	بأن غمضتها يوم التقينا!
فديتُك، ياذا الوحي آياته تتري	تفسرها سرّاً وتكني بها جهراً
وأنشرت أمواتاً وأحييتهم بها	فديتُك ما أدراك بالأمر وما أدري!
فعادوا سكارى - في صفاتك - كلهم	وما طعموا إثمًا ولا شربوا خمرا
ولكن بريقَ القربِ أفني عقولهم	فسبحان من أرسى وسبحان من أسري
سلامٌ علي قومٍ تنادي قلوبهم	بألسنة الأسرار: شكرًا له شكرًا
فطوبى لمن أدنى من الجلدِ ذلوه	وفي الدلو حُسنُ يوسفَ - قال: يا بشرًا!
يطالع في شمعشاع وجهه يوسف	حقائق أسرار يحيطُ بها خبرا
تجلي عليه الغيب وأندك عقله	كما اندك ذاك الطور استهدم الصخرًا
فظل غريقُ العشقِ روحًا مجسمًا	ونورًا عظيمًا لم يدر دونه سترا

وهكذا يناسب شعر الرومي في حلاوة وطلاوة، وتناغم وإنسجام، حاملاً معه فكره، ومواقفه، وإيمانه وعقيدته، وفلسفته الصوفية التي تركز على الإنسان.

وسوف نقدم هنا قصيدة ابن الرومي الرائعة «أطيار الجنان»، والتي يطلق عليها أيضاً «قصر عمر»، ويتناول فيها حياة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، شارحاً من خلالها فلسفته الصوفية ونصائحه الروحية، وأفكاره النورانية:

عبرة حارت لمعناها العقولُ	عن رسولِ الرومِ في أرضِ الرسولِ
جاء يطوي البیدَ سعيًا والحضر	يسأل الأحياءَ عن قصرِ عمر
أبنِ قصرِ ضمِ خيرِ المالكينَ	والهدي والطهر والنور المبين
قصره لاشك مرفوع البناءِ	أنصفوا لو شيدوه في السماءِ
قال بعضُ الناس: يا ضيفَ العربِ	قصره فوقَ الدراري والذهب

* * *

لا تراه في الملا عين البصير	بل تراه في العلاء عين الفكرِ
في سماء المجد مرفوع المنار	ركنه زهدٌ وذلٌّ وانكسارُ
التأخي فيه والعدل بناء	ومباني الناس غش ورياءُ
كل من أغلق عينيه هواه	فهو في الظلمة حاشا أن يراهُ
منزل الأرواح صدقٌ ووفاء	منزل الأجسام لونٌ وطلاءُ

* * *

مالقبي بات بالشكوي ينوح	إن قومي حالهم من قوم نوح
أسد لوا جهلاً علي النور الحجابا	بل أصموا السمع واستغشوا ثيابا
إن نار الحق في قلب الحسودِ	حرمته ظل جنات الخلودِ

ومضي الرومي في شوق عظيم
يسأل العابر عنه والمقيم
فأهاج الشوق منه والهيام
صوت أعرابية بين الخيام

* * *

تحت ذاك النخل في حصن حصين
حي مولانا «أمير المؤمنين»
قد تخلي عن جواد ومتاع
ينشد الكنز المرجي في البقاع
قال: يا سبحانه رب الوجود
أين ذاك القصر أو أين الجنود؟
لم أكن من قبل أخشي قيصيراً
لا، ولا سطوة آساد الشرى
فماذا أوهن الخوف جناحي
من أمير نام في غير سلاح؟

* * *

أحسون يا إلهي وقلاع
تنواري خلف هاتيك الرقاع
من يخف سلطان ذي العرش المجيد
خافه كل قريب وبعيد
وبخوف الله فاز المؤمنون
حيث لاخوف ولاهم يحزنون
ملك العرب جميعا والعجم
نائم في غير جند أوحشم
عبرة تروي لجيل بعد جيل
نام ظل الله في ظل النخيل

* * *

وصحا الخطاب من بعد المنام
مثل صحو الشمس من بعد الغمام
أقبل الضيف وأهداه السلام
وسلام الود يتلوه الكلام
سأل الخطاب ذا الجاه العظيم
عن صفات المبدع البر الرحيم

تسكن الأرواحُ أجسادَ الأنامِ وهي نور كيف تحيا في الظلامِ
قال سبوح إله الملكوتِ فاطر الأكوان قد سي النعوتِ

* * *

أسكن الأرواحَ أو كَارَ الصُّورُ فاستجابت حين ناداها القدرُ
هذا الأرواحِ أطيار الجنانِ فارقت أوطانها للامتحانِ
هي كالعطر طوته الزهراتُ وهي كالفكر حوته الكلماتُ
إنما الألفاظُ نطق ورسومُ والمعاني روح هاتيك الجسومِ
هبطت من وقتها من لزمانِ وثوت في أرضِها من لامكانِ

* * *

عالمُ الغيب له السر المصونُ أمره في خلقه كن فيكونُ
كلم الورد بسر فابتسمُ عن أريج علم الطير النغمُ
وهو أيضا قال سرا للحجرُ فجلا منه عقيقا للنظرُ
وهو قد أفضي بسر للسحابِ فارتوت من فيضه حمر الهضابِ
عندما أوحى بسر للترابِ صار انساؤا له الكون استجابُ
ذلك العذب الفرات الهاطلُ في فم الحيات سم قاتلُ
ليس يحبو جوهر العلم النقاءُ غير أصداف قلوب الأولياءُ
جدد الخبز حياءَ وثناءُ حينما أصبح للحي غذاءُ
ومتى أذعن للبحر السحابُ صار بحرا موجه طامي العبابُ

صاف محبوبك إن رمت الصفاء وأفن في المحبوب إن رمت البقاء
وتجلي سره للأنبياء فتساموا فوق معراج السماء

* * *

كم عروسٍ جلّيت للناظرين وهي لا تهدي لكل الخاطبين
إنزع الأصبع عن سمع اليقين تستجب روحك للروح الأمين
قيد الجسم بها انشق الحجر ويد الروح لها انشق القمر
قطر نيسان إذا ما أمطرا في فم الأصداف أضحي جوهر
كن جليس الأنبياء المرسلين في كتاب الله رب العالمين

* * *

سقاني محبوبي..

تجلي لي المحبوبُ في كل وجهةٍ
فشاهدتهُ في كل معني وصورةٍ
وخطابني مني بكشفٍ سرائري
فقال أتدري من أنا قلتُ منيتني
« إبراهيم الدسوقي »

هو العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي (٦٣٣هـ - ١٧١٦هـ) ينتهي نسبه إلى الإمام علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو من أجلاء مشايخ مصر وطريقته "البرهامية" تنتشر في مصر وسوريا وتركيا والحجاز واليمن وحضرموت، ومنها فروع كثيرة كالشرنوبية والشهاوية، والسعيدية الشرنوبية.

وللدسوقي كلام كثير علي لسان أهل الطريق منشور في كتبه القيمة، وأهمها «الجواهر» المعروف باسم «جوهرة الدسوقي».

وهناك ترجمة مطولة للشعراني يقول فيها: ان الدسوقي من نسل الحسين، وتفقه علي مذهب الإمام الشافعي، ثم إقتفى آثار الصوفية، وجلس في مرتبة الشيوخ، وحمل الراية البيضاء، وعاش من العمر ثلاثة وأربعين سنة، لم يغفل خلالها عن مجاهدة النفس والهوى والشیطان.

أما مذهب الدسوقي الذي دفن بمدينة دسوق، ولا يزال مسجده يقصده الآلاف حتي يومنا هذا فقد لخصه العارف بالله نفسه في العبارة التالية:

«من عرف الله وعبدته فقد أدرك الشريعة والحقيقة فأحكموا الحقيقة والشريعة ولا تفرطوا إن أردتم أن يقتدي بكم، ولم يكن اسم الحقيقة إلا لأنها تحقق الأمور بالأعمال، ومن بحر الشريعة تنتج الحقائق، والشريعة هي الشجرة والحقيقة هي الثمرة، والشريعة أصل والحقيقة فرع، والشريعة تجمع كل العلوم المشروعة، والحقيقة تجمع كل العلوم الخفية».

وللدسوقي أشعار رائعة في الحب الالهي المفضي إلي الفناء، وشهود الوحدة، وإن كان يقترب قليلا من ابن الفارض، إلا أنه ربما يكون أكثر شفافية، وتلقائية، ورقة، وعذوبة. وهامي ذى قصيدة الدسوقي النورانية «سقاني محبوبي»:

نجلي لي المحبوبُ في كل وجهةٍ
وخاطبني مني بكشفِ سرائري
فأنت منائي بل أنا أنت دائماً
فشاهدته في كل معني وصورةٍ
فقال أترى من أنا قلتُ منيتي
إذا كنتَ أنتَ اليومَ عينَ حقيقتي

فقال كذلك الأمر لكنه إذا
فأوصلت ذاتي باتحادٍ بذاته
فصرت فناءً في بقاءٍ مؤبدٍ
تعينت الأشياءُ كنتُ كنسختي
بغير حلولٍ بل بتحقيقٍ نسبتي
لذاتٍ بديمومةٍ سرمديّةٍ

وييني عني فأصبحت سائلاً
وأنظر في مرآة ذاتي مشاهداً
فأغدو وأمري بين أمرين واقفٌ
لذاتي عن ذاتي لشغلي بغيبتي
لذاتي بذاتي وهي غايةٌ بغيبتي
علومي ثمحوني ووهمي مثبتتي

خبأتُ له في جنة القلب منزلاً
وما شهدت عيني سوي عين ذاتها
بذاتي تقوم الذات في كل ذروةٍ
ترفع عن دعْد وهندٍ وعلوةٍ
وإن سواها لايلم بفكرتي
أجددُ فيها حلةً بعد حلةٍ

سقائي محبوبي بكأس المحبةِ
ولاح لنا نور الجلالةِ لوأضاً
وكنت أنا الساقى لمن كان حاضراً
فتنهتُ عن العشاقِ سكرًا بخلوتي
لصُم الجبالِ الرساياتِ لدُكتِ
أطوفُ عليهم كَرَّةً بعد كَرَّةٍ

وناد مني سرّاً بسرٍ وحكمةٍ
وأن رسول الله شيسخي وقسد وتي

وعاهدني عهداً حفظتُ لعهدِهِ وعشتُ وثيقاً صادقاً بمحبَّتِي
وحكمني في سائر الأرض كُلِّهَا وفي الجنِّ والأشباحِ والمرديةِ

* * *

وفي أرضِ صينِ الصينِ والشرقِ كُلِّهَا لأقصي بلادَ اللهِ صَحَّتْ ولايتِي
أنا الحرفُ لا أقرأ لكلِّ مناظرٍ وكلُّ الوري من أمرٍ ربيِّ رعيَّتِي
وكم عالمٍ قد جاءنا وهو منكِرٌ فصارَ بفضلِ اللهِ من أهلِ خرقتي

* * *

وما قلتُ هذا القولَ فخراً وإنما أتى الإذنُ كي لا يجهلونَ طريقتي
غنيتُ عن الدنيا بفيضِ عطائه وأيُّ عطاياهم يداني عطيتِي؟
وصرتُ علي بُعدِ المسافاتِ واصلاً لأدني دنو في إرتفاعي لغايتي

* * *

فوجه الحبيبِ الحقِّ مشرقَ وجهتي ونورُ الحبيبِ الحقِّ ساطعَ قبلي
وفي القلبِ أشواقٌ يرجعُ فيضُها عن الألقِ السامي إلي قُدسِ حضرةِ
شهدتُ وشاهدنا، وطابتْ نفوسنا وقد لذَّ لي ذليُّ إليه وخشيتي

* * *

أحنُّ علي ذلٍّ، وأهوي علي هدي وأسري علي علمِ لأنوارِ طلعةِ
رضيتُ به حتي دخلتُ رياضَه فأنعم بها من روضةِ أيِّ روضةِ
وما لذةَ العشاقِ إلا يقينهمُ بشملِ جميعِ بعدِ طولِ تشتتِ
وأغسلُ قلبي من سواك، ولم أجِدْ لنفسي إلا نورَ ذاتك بغيتي
تعاليتُ بالعطفِ الكريمِ، رعاية فَبَارَكْتَ زلاتي وأمنتُ روعتي

* * *

تجشقت نور الله..

إذا قيل لي أطلب قلت ربي مطلبي
وان قيل لي اشرب قلت أنواره كأسي
وكل عهد قد تنكس أصلها
ولكن عهد الله باق بلا طمس
« الشيخ على عقل »

هذا الشاعر يمثل السمو الروحي في الأدب الصوفي كما يبدو لمن يتتبع مآثره من أشعار في الحب الإلهي، وما خلفه من ترانيم صوفية، ومدائح نبوية تفيض رقة، وتقطر عذوبة. والشاعر الصوفي الكبير الشيخ علي عقل ليس مجرد أحد أقطاب الشعر الصوفي فقط، وإنما رائد من رواد الاتجاه الحسي في مدرسة الأشعار الصوفية - إذا جاز التعبير - وصاحب صوت شعري شجي، يؤثر القلب، ويستحوذ علي القوادر. أنظر إليه يقول:

وان الورد يدبُّلُ بعمد وقت	وردد الحب كأن به دُبُولي
وريُّ الناس من مماء ولكن	شرابُ الحب يذكي من غليلي
أداري الحب حنَّتي لويراني	أخو وجد تشكك في نُحُولي
وبي نار لو استقصي لظاها	لحقر وجدّه وحذا سبيلي
ولي بالوجد سرّاً يضاهي	وما أنا في المحبة بالهزيل

ورغم أن حياة الشيخ علي عقل لم تمتد طويلاً حيث وافته المنية عن أربع وخمسين عاماً فقط (١٨٩٤ - ١٩٤٨م) إلا أنه ترك أثراً عظيماً تدل علي ماكان له من مكانة وتأثير علي الساحة كأحد علماء عصره في التصوف والعلوم الشرعية.

فقد كان الشيخ علي عقل الذي فقد بصره صغيراً، ووهب حياته لدراسة علوم القرآن والدين، ودرس في الأزهر الشريف، علماً من أعلام عصره، يقصده طلاب العلم من كل صوب، ويتعشقه المريدون، وتنسج حوله مجالس الذكر والانشاد.

ومن أشهر أعمال هذا الصوت الصوفي العذب ديوانه الشعري، الذي أطلق عليه اسم «الالهام»، ويضم بين ضفتيه مآثره من قصائد روحية، وترانيم صوفية، ومدائح نبوية.

وسوف نورد هنا قصيدة «تعشقت نورالله» التي تمثل قمة السمو الروحي في الشعر الصوفي:

قتلتُ هوي نفسي، فعشتُ بلا نفسٍ وجافيتُ أنسي، فأنحدرتُ إلي الأنسِ
ولم أُبد أمرِي للعَبَاد، فطالما كتمتُ الذي ألقى عن الجنِّ والإنسِ
وأدركتُ بالوجدانِ سرَّ أحبَّتِي وعانيتُ آياتِ اليقينِ بلا لبسِ

* * *

وعشتُ زمني لست أحفل بالوري وكيف، وقلبي هام في مشهدِ القدسِ
وعلمتُ غيري ما أفادَ من الهدى فلم يبقَ ذو فهمٍ لديَّ علي طمسِ
إذا وسَّدَ الناسُ القبورَ، فإنني جعلتُ التقى والذكر بين الوري رمسي

* * *

ولم أخشَ من بأسٍ ولم أخشَ طاغيًا ومن يخشَ ذاتَ الله لم يرَ من بأسٍ
وهل غيرَ ذاتِ الله للنفسِ مطلبٌ حرامٌ سوي الرحمنِ يدخلُ في نفسي
وتوجتُ بالقرآنِ نفسي عقيدةً أصونُ به نفسي من الزَّيغِ والُدسِ
وما اتخذتُ رُوحِي سوي الله غايةً فتم الهدى للروح والقلب والحسِ
وإن شربَ الناسُ الطَّلَا وتصببوا فسنةٌ خلقَ الله في شربها كأسِي

* * *

وإن رفعَ المثلونَ عجبًا رؤسهم رفعتُ بذكر الله فوق الوري رأسي
وإن جعلوا الشمسَ اعتداءً ليومهم جعلتُ رضا ربِّي وآيته شمسي
وإن غرسوا زرعًا لنيل حصاده وإن غرسوا زرعًا لنيل حصاده

* * *

تعشقتُ نور الله وهو بصيرتي وقد وضع البرهان من آية الكرسي
ومذ شاهدت رُوحِي جلالك وإرتقتُ تجردتُ عن مغناي في عالم الحسِ
أحبك يا ربِّي محبةً موقنٍ ومن قوةِ الايمانِ أصبح أو أمسي

* * *

فؤادي قد أبعدتُ عن مشهد الوري
أطوف علي الأبوابِ قلبي مُوجعٌ
وأعد مني في الحبِّ علمي بقدره
فطهر في لجواك من ظلمة الرّجسِ
وليس سوي رحماك للقلب من نطسِ
فليس غرامي فيه يدرك عن قيسِ

ولم أعشق الدنيا فتلك مجازة
لِقاؤك بارحمن عيدي وعُدتي
وبخرُك منه قد لقيتُ جواهري
تهى للأخري وفي فونها عرُسي
ونُورك غيبي وهو لي في الوري أنسي
بشاطئه سُفني علي لُجّه غطسي

وطيبُ الوري ورُسٌ ومسكٌ وعنبرٌ
ولستُ من الدنيا، أميلُ إلي العلا
أمتع أعضائي بذكرك دائماً
وطيبي من محياك أَسْمِي من الورسِ
فإنَّ علا الدنيا لأصحابه يُنسي
وهل غيرُ ذُكر الله يسكنُ في نفسي

وكلُّ رجائي أن أحبك صادقاً
وما فضله وقفٌ علي أيِّ عالمٍ
إذا رضي الرحمن عن قلب عبده
إذ الصّدقُ في الوجدان مرتبة القُدسِ
وحقك ما حُددَ العطاء علي جنسِ
جرت مركبُ الأقدار معه علي اليُسِ

تخلّ ولا تحفل بجنٍّ ولا أنسٍ
وأقبل علي مولاك بالقلب مخلصاً
وخُذْ لك بالايّمان أصدقَ وجهة
وعشْ في هوي الرحمن تسعدُ بالأنسِ
وأسلمُ وسلمُ واتجَّه
وطهر بها نفساً عن النّفي والرجسِ

تجرد تجرد مولاك أكبر ناصر
حياة الوري حلو ومر وإنما
ومن لايري إلا الإله مراده
وفوض له ساكن في الغد والأمس
حلا المرء بالتوحيد من رقة الحس
حرام عليه الخوض في العرش والكرسي

* * *

ومن يتعمشق نوره وجلاله
وانك لو عظمت دينك عالما
وكنت علي الأحداث بالله راضيا
فليس له التشبيب بالبدر والشمس
وعالت بالحسني وأدبت للنفس
سواء عليك الموت أو ساعة العرس

* * *

سعدت من الدنيا بربك محسنا
يقولون لي من أنت؟ قلت: موحد
إذا قيل لي أطلب قلت ربي مطلبي
ونلت من الأخري عطاء بلا بخس
إلي ربه يسعني ولم يرمن بأس
وإن قيل لي أشرب قلت أنواره كأس

* * *

وكل عهد قد تنكس أصلها
سلوني عن العشاق قد ذقت حُبهم
ولكن عهد الله باق بلا طمس
وإني لهم رأس إذا كان من رأس

* * *

وما هم سوي أعضاء جسمي وبزني
وما حيلتي إلا انكساري في الحمي
أصافحهم ما شئت لكن بلا لمس
وإن إنكسار القلب يكشف عن قدسي
ومر الهوي عندي وفي هجرهم نفسي
وحلو الهوي عندي لقاء أحبتي

* * *

وأعرف رحماني وأدركُ عفوهُ
وأنهضُ معترزا وما أنا بالمنسي
وإنَّ حبالَ الوجدِ تربطُ مهجتي
وقلبي بحبِ الله يعبقُ كالورسِ
وإن كنت في سعدٍ فذلك فضلهُ
وإن لم أكنُ من سادةِ العربِ والفُرسِ

فقل للذي يُزجي الشراعِ دع الكريَّ
تجدُ سُننَ الاحسانِ تجري علي اليبسِ
وسرُّ موقنا أن الاجابة للهوي
إذا مادعا الداعي ولاتكُ في حدسِ
فكلُّ الذي ترآه والكون خلقهُ
وما نفع التفريقُ بالنوعِ والجنسِ

حسبتُ الهوي سهلاً فخضتُ عبابه
فطوراً به أطفو، وطوراً به غطسي
إلي أن أتتني من لدنه عنايةُ
وصلتُ بها برَّ السلامةِ والأنسِ

فطرة النفس..

والكل أنت بمعنى لاخفاء به
والنور بحجب به كالماء في اللبن
والعبد محتجب في عز مالكة
دقت معارفه في الدهر والزمن

« أبو العباس المرسي »

المرسى أبو العباس أحد أعلام التصوف فى عصره ،
وأحد الذين تركوا أثراً كبيراً بعد وفاتهم. فى مريديهم،
وتلامذتهم وخاصة فى الاسكندرية حيث أقام معظم
سنى عمره. والإمام العارف بالـ شهاب الدين أبو العباس
أحمد بن عمر الخزرجى الأنصارى المرسى البنسى، ولد
فى مرسية ببلاد الأندلس. تلك المدينة التى نسب إليها
فسمى "المرسى" فى سنة 111 هـ

وعلى الرغم من أن أبى العباس المرسى قد وفد الى الاسكندرية مع أستاذه ومعلمه
أبى الحسن الشاذلى سنة ٦٤٢ هـ ، الا أن نجمه سرعان ما سطع فى سمائها، حتى أصبح
كعبة الباحثين عن العلم، وخاصة بعد موت شيخه الشاذلى ، الذى تتلمذ على يديه.

كان المرسى يلقى الدروس ، ويلقن أتباعه ومريديه، مبادئ السلوك القديم، وسبل
الوصول الى رضا الله، وفلسفته فى الزهد، التصوف، متخذاً من جامع العطارين مركزاً
لدعوته، وحلقة لدرسه.

وقد كان المرسى أبو العباس ذا حس مرهف، وعاطفة رقيقة ، وقلب ينبض بذكر الله،
يجمع بين نفاذ البصيرة. وشفافية الرؤية، والنزوع الى الحكمة ، مما ظهر واضحاً جلياً فيما
خلفه من شعر رائع هو احدى الدرر التى تزين جبين الأدب الصوفى.

وسوف نعرض هنا لقصيدة المرسى أبو العباس «فطرة النفس» التى يشرح فيها
فلسفته فى التصوف فى تناغم وانسجام وترابط رائع فى لوحة شعرية جميلة مفعمة
بالخلاوة والرقّة والعذوبة.

إن كنت سائلنا عن خالص المتن
وعن تشبثها بالخطّ مذ ألفت
وعن بواعثها بالطبع مائلة
وعن حقيقتها في أصل معدنها
وعن تنزلها في حكمها ولها

وعن تألف ذات النفس بالبدن
أدراؤها فغدّت تشكو من العطن
تهوى بشهوتها في ظلمة الشجن
لا يثنى وصفها منها إلى وثن
علم يفرقها في القبح والحسن

* * *

فاسمع هُديتَ علومًا عز سالكها
قصداً الى الحق لا تخفى شواهدا
يا سائلي عن علوم ليس يدركها
لكن بنور عليّ جامع خمدت
خُذها اليك بحق لست جاهله

على البيان ولا يفررك ذو لسن
قامت حقائقها بالأصل والفن
ذو فكرة بمفهوم لا ولا فطن
له العقول وكل الخلق في وسن
والأمر مطلع والحق قيدي

* * *

على الحقيقة خُذ علم الأمور ولا
نفطرة النفس سرّاً يُحيط به
لكنها برزت بالحكم قائمة
وكي يقال عبيد قائمون بما

تحجبك صورتها في عالم الوطن
عقل تقيّد بالأوهام والدرن
حتى تألفها السكان بالسكن
ألقى من الأمر قبل الخلق والمحن

* * *

والنفس بين نزول في عوالمها
والروح بين ترقّ في معارجها
من الحجاب دنت أنوارها فبدت
مثالها في العُلا مرآة معدنها

كآدم وله حواء في قرن
وهي الموافق للتعريف والمتن
نوراً تنزل بين الماء والدمن
أطافها خفية كالسر في العلن

* * *

زيتونة زيتها نورٌ لصاحبها قامتُ حقائقها بالأصلِ والقُننِ
ونار دعوتها ماءٌ لشاربها مُدَّتْ هدايتها في الكونِ والكُننِ
والكل أنت بمعنى لاخفاء به والنور يحجب به كالماءِ في اللَّبنِ
والعبدُ محتجبٌ في عزِّ مالِكه دقت معارفه في الدهرِ والزمنِ

* * *

بحار الهوى..



يا من به علقـت رـوحـى فـقـد تـلـفـت
وجـدا فـصـرت رـهـيـنا تـحـت أهـوائـى
أبـكى عـلى شـجـنـى مـن فـسـرقتـى و طـنـى
طـوعـا و يـسـمـدنـى بـالنـوح أـعـدائـى
« الحـلـاج »

نحن هنا بصدد الحديث عن شاعر صوفى آخر بلغت شهرته الآفاق فى الشرق والغرب، انه الحسين بن منصور الحلاج ، صاحب المأساة المشهورة فى تاريخ الفكر والتصوف باسم "مأساة الحلاج".

وقد ولد الحجاج ببلاد فارس سنة ٢٤٤ هـ ، واختلف الناس فى تسميته بالحلاج، بعضهم نسب ذلك إلى أبيه الذى كان يعمل بصناعة الحلج، وآخرون يقولون: إنه سمي كذلك لأنه كان يكشف الناس بما فى قلوبهم ، فأطلقوا عليه «حلاج الأسرار».

ورغم أن الحلاج، كان يطوف البلاد يبشر بالإسلام، ويعلم الناس طريقته، وكان يحاول هداية الانسانية كلها، عن طريق الاسلام الا أن نهايته كانت مأساوية بصورة مفزعة.

كان الحلاج بمجرد أن استقر به المقام فى بغداد، ينزل الى الناس يعظهم، يهديهم، وكان يلقي دعوياه للهدايا شعرا فيسحر الألباب.

ولما ضاف رجال الدولة بنفوذ الحجاج، وصيحاته ونداءاته، ودعواته الاصلاحية، وخافوا أن يوقظ همة الناس، اتهموه بإدعاء الألوهية، والتزندق ، وشكوه الى الخليفة «المقتدر» فأمر بالقبض عليه.

واقْتادوا الحلاج الى بغداد وناظر العلماء وتناولوا عليه، ونفى ادعاء الألوهية، وذكر أنه ليس الا عبدا لله يؤمن به ويرسله، ولكنه يدعو الى الحق وينشد الخير للمسلمين ولا يقر الظلم، وتبرأ من الشهود الذين استدعواهم، واستعاذ بالله من الدعوى، وهاجت الجماهير المحتشدة خارج المحكمة، واستمر الحلاج متحفظا عليه مدة تسع سنوات الى أن صدر أمر باعدامه.

وقبل أن يضرب السياف عنقه كانت آخر كلمة له: «حسب الواجد أفراد الواحد له» فسمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ الا ورق له، ثم ضربوا عنقه، ولم يبق ببغداد الا من

شهد قتله، وصبوا على الجسد النفط وأشعلا فيه النار ثم حملوا الرماد على رأس منارة لتذروه الريح، وكان ذلك في سنة ٣٠٩ هـ، وصبوا الرأس يومين على الجسر ثم طيف به في خراسان.

وللحلاج كتب كثيرة تزيد على ٤٨ كتابا معظمها أحرق أو مذق، أو استولى عليه خصومه وأعداؤه، ولم يبق منها جميعا سوى «طاسين الأزل».

أما شعر الحلاج فقد بقى محضورا في قلوب أحبائه، مستقرا في صدورهم، ولم يستطع أحد أن يتخلص منه ككتبه، فقد كان الحلاج شاعرا روحيا ليس له مثيل، يلقي الشعر فيسحر الألباب.

وسوف نقدم هنا أحلى ما كتب الحلاج من شعر في مواضع مختلفة، وفي أحداث مختلفة من حياته، وسنبداً بأحلى ما كتبه في وصف موعد حب، ثم أشعار أخرى من أروع ما كتب في الحب الالهي والتصوف:

لى حبيب أزور في الخلوات	حاضر غائب عن اللحظات
ما تراني أصغى اليه بسرى	كى أعى ما يقول من كلمات
كلمات من غير شكل ولا نقط	ولا مثل تغمية الأصوات
فكأننى مخاطب كنت إياه	علي خاطرى، بذاتى لذاتى
حاضر غائب قريب بعيد	وهو لم تحوهِ رسم الصفات
هو أدنى من الضمير الى الوهم	وأخفى من لائح الخطرات

* * *

ومن أعجب الأشياء ظي مبرقع	يشير بعناب ويومى بأجفان
ومرعاها ما بين الترائب والحشا	ويا عجباً من روضة وسط نيران
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكمبة طائف
أدين بدين الحب أنى توجهت
لنا اسوة فى بشر هند وأختها
وألواح توراة ومصحف قرآن
ركائبه فالحب دينى وإيمانى
وقيس ليلى ثم سى وغيلان

يا سر سر يدق حتى
وظاهراً باطننا تجلبى
ان اعتذارى اليك جهل
يا جملة لكل لست غيرى
أدنوا فيبدعنى خوفى فيقلقنى
فكيف أصنع فى حب فيقتلنى
قالوا تداو به منه فقلت لهم
قحى لمولاي أضنانى وأسقمى
يخفى على وهم كل حى
لكل شىء بكل شى
وعظم شك وفطرط عى
فما اعتذارى اذا الى
شوق ممكن فى مكنون أحشائى
شوق ممكن قد مل من سقمى أطبائى
يا قوم هل يتداوى الداء بالدائى
فكيف أشكو الى مولاي مولائى

وقال الحلاج وهم يقطعونه عضواً عضواً:
اقـتـلـونـى يا ثـقـلـاتـى
ومماتى فى حـيـاتـى
أنا عند مـخـوـذاتـى
ويقتلنى فى صـفـاتـى
فماقتلونى واحرقونى
ان من قتلى حياتى
وحياتى فى مماتى
من أجل المكرمات
من قبيح السيئات
بعظامى الفئانيات

ثم مروا برفساتى فى القصور الدارسات
تجدوا سر حبيبى فى طوايا الباقيات

* * *

والله ما طلعت شمسٌ ولا غربت
ولا جلستُ الى قومٍ أحدثهم
ولا ذكرْتُك محزونًا ولا فرحًا
ولا هممت بشرب الماء من عطش
ولو قدرت على الاتيانِ جئتكمو
ويا فتى الحقَّ أن غنيتَ لى طربًا
مالى وللناس كم يلحوننا سفها
الا وحبَّك مقرونٌ بأنفاسى
الا وأنت حديثى بين جلاسى
والا أنت بقلبى بينَ وسواسى
الا رأيت خيالاً منك فى الكاس
سعيًا على الوجه أو مشيا على الراس
فغن وارحمتنا من قلبك القاسى
دينى لنفسى ودين الناس للناس

* * *

لبيك لبيك يا سررى ونجوائى
أدعوك بل أنت تدعونى إليك
يا عين عين وجودى يا مدى همى
يا كل كلى ويا سمعى ويا بصرى
يا من به علقت روى فقد تلفت
أبكى على شجنى من فرقنى وطنى
لبيك لبيك يا قصدى ومعنائى
فهل ناديت أم ناجيت إياى
يا منطقى وعباراتى وإعياى
يا جملتى وتباعيضى وأجزائى
وجدًا فصرت رهينًا تحت أهوائى
طوعًا ويسعدنى بالنوح أعدائى

* * *

ما زلت أطفو فى بحار الهوى يرففنى الموجُ وأنحطُ

فتارةً يرفعني موجهها وتارةً أهوى وأنفطُ
حتى إذا صيرني في الهوى إلى مكانٍ مـالٍ له شطُ
ناديتُ يا من لم أبجُ بسره ولم أخنه في الهوى قطُ
تقيك نفسي السوء من حاكم ما كان هذا بيننا شرطُ

تباركت مشيئتك يا قصدي ومرادي يا ذات وجودي وغاية رغبتي
يا حديثي وإيمائي ورمزي يا جميعي وعنصري وأجزائي

تجاسرت فكاشفتـ لك لما غلب الصبرُ
وما أحسن في مثلـ لك أن ينتهك السرُّ
وان عنفني الناسُ ففى وجهك لى عذرُ
كأن البدرَ محتاجُ الى وجهك يا بدرُ

وحُرمة الود الذى لم يكن يطمع فى افساده الدهرُ
ما نالنى عند هجوم البلا بأسٌ ولا مسننى الضرُّ
ما قُدلى عضوٌ ولا مفصلُ ما قُدلى عضوٌ ولا مفصلُ

ندمى غير منسوب إلى شىء من الحـيـفِ
دعاني ثم حيانى فـعل الضيف بالضيفِ

فلما دارت الكأسُ دعا بالنطع والسيفِ
كذا من يشرب الراح مع النشربين فى الصيفِ

* * *

أنا سر الحق ما الحق أنا بل أنا حق ففارق بيننا
أنا عين الله فى الأشياء فهل ظاهر فى الكون إلا عيننا
سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقبِ
ثم بدا خلقه ظاهرًا فى صورة الأكل الشاربِ
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجبِ

* * *

يا موضع الناظر من ناظرى ويا مكان السر من خاطرى
يا جملة الكل التى كلها أحب من بعض ومن سائرى

* * *

الحب ما دام مكتومًا على خطر وغاية الأمن أن تدنو من الحذرِ
وأطيب الحب ما تم الحديث به كالنار لم تؤث نفعًا وهى فى الحجر.

* * *

كيفية السبيل؟!..

فنحن كدودٍ القزِ يحصرنا الذي
صنعنا بدفع الحصرِ سجنًا لنا منا
فكم واقفٍ أردى وكم سائرٍ هدى
وكم حكميةٍ أبدى وكم مملقٍ أغن
« الششتري »

كان من الأمراء وأولاد الأمراء، فصار من الفقراء وأولاد الفقراء.. هكذا كان يطلق على الشيخ على بن عبد الله النميري الملقب بالششتري نسبة الى مسقط رأسه قرية "ششتري" بوادي "آش" بالأندلس ولعل السر وراء هذه العبارة التي كان يشار بها الى الششتري (٦١٠ - ٦١٨هـ) هو نشأته في أسرة عظيمة الثراء والجاه والنفوذ نظراً لانتسابها الى أمراء البلاد، ثم تحوله برغبته عن حياة الدعة والنعيم الى حياة الزهد والتصوف.

وقد بدأ الششتري الذي حفظ القرآن في صغره ثم درس الفقه، حياته تاجراً يجوب البلاد شرقاً وغرباً وظل على هذا النحو حتى حضر حلقة ذكر لاتباع «أبي مدين» الصوفي المشهور، ولزم مجلس محيي الدين بن سراقه تلميذ «السهروردي»، وأخذ عنه التصوف.

ولكن أكثر ما أثر في الششتري وأحدث تحولا جذريا في حياته، وجعله يتحول الى التصوف بكل جوارحه وحواسه، ويصبح واحدا من أهم أئمة التصوف في المغرب هو التقائه بأحد أعلام الصوفية الكبار في عصر المعروف بـ «ابن سبعين».

ويصف الششتري معلمه ابن سبعين الذي التقى به بعد أن أصبح وزيراً وعالماً في بعض قصائده بأنه «مغناطيس النفوس» و«أكسير الذات»، والحقيقة أن ظهور ابن سبعين في محيط الششتري أحدث انقلاباً في حياته الروحية. فقد طبق ابن سبعين القاعدة الصوفية الخاصة بضرورة تخليص نفوس المريدين من الغرور والتكبر، وهو ما يعرف عند الصوفية بـ «كسر حدة النفس».

وقد طاف الششتري بلادا كثيرة حتي وصل مصر واعتكف زمنا بالجامع الأزهر، وتعرف الى الشاذلية، وبلغ إعجابه بها، وإعجاب أصحابها به، الى حد أن بعض المؤرخين ينظرون اليه كأحد أتباع هذه الطريقة.

وقد ترك الششتري الذى عاش بمصر بقية حياته ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة أثناء مروره بمنطقة قريبة من دمياط، فنقله بعض مريديه الى دمياط ليدفن بها، ديوانا يضم عددا من القصائد والموشحات الى جانب بعض الرسائل الصوفية.

وشعر الششتري فى غاية العذوبة وتواشيعه فى غاية الحسن، وأزجاله فى غاية الملاحه، وترى فى سائر ما نظم من شعر الرموز الصوفية المتعارف عليها. انظر اليه كيف يرى حقيقة «الخمر» التى يتحدث عنها الصوفية:

تنبه قد بدت شمسُ العُقارِ وقد غلب الشعاعُ على النهارِ
سلافاً قد صفتُ قدماً وراقت أدراها بالصفار وبالكبارِ
فما عُصرتُ وما جُعِلتُ بدنٌ وما سُبكتُ زجاجتها بنارِ

ويروى أن الششتري قبل وصوله مصر مر بطرابلس حيث أعجب الناس بعلومه، وخاصة فى الفقه والسنة، وعرضوا عليه البقاء، وتولى القضاء، ولكنه رفض مؤثرا حياة التقشف والزهد، وعندما لاموه، ونعتوه بالجنون أنشد يقول:

رَضِيَ الْمُتَمِّمُ فِي الْهَوَى بِجَنُونِهِ خَلَّوْهُ يَفْنَى عَمُّرِهِ بِفُنُونِهِ
لَا تَعْلُوه فَلَيْسَ يَنْفَعُ عَذْلَكُمْ لَيْسَ السُّلُوْ عَنْ الْهَوَى مِنْ دِينِهِ
قَسَمًا مِنْ ذِكْرِ الْعَقِيقِ لِأَجَلِهِ قَسَمَ الْمُحِبُّ بِحُبِّهِ وَيَمِينِهِ
مَالِي سِوَاكُمْ غَيْرَ أَنِّي نَائِبٌ عَنْ فَاتِرَاتِ الْحُبِّ أَوْ تَلْوِينِهِ
مَالِي إِذَا هَتَفَ الْحَمَامُ بِأَيْكَةِ أَبَدًا أَحْنُ لَشَجْوِهِ وَشَجْوُونِهِ

والى جانب شعره العمودى ، كان للششتري أزجاله المشهورة، والتى لا يزال يتغنى بها المنشدون فى حلقات الذكر، وخاصة فى المغرب العربى، ومن أشهر أزجاله تلك التى يستهلها قائلا:

شيوخ من أرض مكناس فى وسط الأسسواق يُغنى
 ايش على من الناس وايش على الناس منى
 ويعتبر الششتري أول من استخدم الزجل فى التصوف. ولقد بلغت شهرة الششتري
 فى الأزجال الصوفية الى الدرجة التى جعلت ابن تيمية يطلق عليه «صاحب الأزجال»
 وقد اعتمدت «الششتري» كطريقة أقرب الى التصوف السنى على اعتمادها على السماع
 والموشحات التى كان يؤلفها الششتري.

أرى طالباً منّا الزيادة لا الحُسنى بفكر رمى سهمًا فعُدّى به عُدنا
 وطالبنا مطلوبنا من وجودنا نغيب به عنّا لدى الصعق إذ عَنّا
 تركنا حظوظنا من حضيض لحوظنا من المقصد الأقصى الى المطلب الأسنى
 ولیم نلف كُنّه الكون الا توهبنا وليس بشيء ثابت هكذا ألفينا
 نرفض السوى فرضُ علينا لأننا بملة محو الشرك والشك قد دَنّا
 ولكنه كيف السبيل لرفضه ورفضه المرفوض نحن وما كُنّا

فيا قائلاً بالوصل والوقفه التى حجب بها أسمع وأرعى مثلما بنا
 تقيدت بالأوهام لما تداخلت عليك ونور العقل أورثك السجنا
 وهمت بأنوار فهمنا أصولها ومتبعها من أين كان فما همنا
 وقد تتحجب الأنوار للعبد مثلما تُقيد من اظلام نفس حوت ضغنا
 وأى وصال فى القضية يُدعى وأكمل من فى الناس لم يدع الأمنّا

ولو كان سرُّ الله يدرك هكذا لقال لنا الجمهورا نحن ما خبنا
 فكم دونه من فتنة وبلية وكم مهمة من قبل ذلك قد جَبنا
 فلا تلتفت فى السير غيراً وكل ما سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا

وكل مقام لا تقم فيه أنه حجاب فجد السير واستجد العونا

ومهما ترى كل المراتب تجتلى عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لى غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى
وسر نحو أعلام اليمين فأنها سبيل بها من فلا تترك اليمنا
أمامك هول فاستمع لو صيتى عقال من العقل الذى منه قد تبنا

أباد الورى بالمشكلات وقبلهم بأوامره قد أهلك الجن والبنا
محجتنا قطع الحجا وهو حجتنا وحجتنا تلوه باء بهما تهنا
يبطتنا عند الصمود لأنه يود لو أنا للصعيد قد أخلدنا

تلوح لنا الأطوار منه ثلاثة كراء ومرئى ورؤية ما قلنا
ويصبر عبداً عند طور بقائه ويرجع مولى بالفنا وهو لا يفنى
فنحن كدود القز يحصرنا الذى صنعنا بدفع الحصر سحنا لنا منا
فكم واقف أرذى وكم سائر هدى وكم حكمة أبدى وكم مملق أغنى

شکوی وجواب شکوی..

لقد ذهب الوفاء فلا وفاء
وكيف ينال عهدى الظالمينا
إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ولا ديننا لمن لم يحيى دينه
« محمد اقبال »

عندما مات الفيلسوف الشاعر المسلم محمد اقبال،
الذى وهب عقله وقلبه للمسلمين والبشر جميعا، فقد
الاسلام والانسانية جمعاء عالما روحيا ظل - طيلة
حياته - يحاول أن ينشئ الناس نشأة أخرى، ويسن لهم
فى الحياة سنة أخرى.

لقد كان محمد اقبال الذى قال : كل كلام يصدر عن القلب يترك أثره فى القلوب،
صوت الانسانية المعذبة فى كل مكان، المتحدث باسم معاناتها، المدافع عن عذاباتها،
الحامل لهمومها، المتاصر لقضاياها ، والحصن الذى يقىها الهجمات التتريّة، التى تحاول
هدم القيم، واقتلاع المبادئ، من جذورها، دون وازع من رحمة أو ضمير وأنظر اليه يقول:

المؤمنون على عنايتهم	ة ربهم يتوكلون
لا خوف يفزعهم ولا	هم فى الحوادث يحزنون
لو مر أضعفهم على	فرعون يجتز الرؤوسا
لأراك فى الافصحها	رونأ وفى الإيمان موسى

أنى رأيتُ الخوف فى الـ	دنيا عدواً للعمل
هو مطفىء نور الرجاء	وسـالب كنز الأمل
يرمى الارادة بالتزلزلـ	زل والعمزيمة بالخـور
ومن احتواه الخوف لا	يجنى من الروض الثمر

المؤمن الوئاب تعظمـ	صمه من الهول السكينـ
والخائف الهيب يغرق وهو	فى ظل السفينة
تلقاه عند شبابه	هرماً قد انحطت هواه
وتعثر قدمها قبل	الخطو وارتعشت يده
فى السلم قبل الحرب مسـ	لوب الشجاعة حائر

الصبر عنه نافز واللب منه طائر*

* * *

أعداؤكم يخشون سيـ ف يقينكم قبل السيوف
ومرامهم أن تسرعوا بالخوف من قبل الحتوف
حتى تروا نظراتهم مثل الخناجر في الصدور
وهناك يقطفونكم من أرضكم قطف الزهور

* * *

الحقد والكذب الصرا ح وكل مكر أو دهاء
واليسأس والجبن المذل وكل غش والتواء
تلك الرذائل في شعو ب الأرض أبواب الفناء
لولا المخاوف ما سمعنا باسمها تحت السماء

* * *

الشرك يصنع من خيوط الخوف أشراك البلاء
لولاه لم نسلم مع بكف ر أو نفاق أو رياء
المؤمنون لهم من المولى أمان الأولياء
بلغوا الكمال فهم عن الدنيا العريضة أغنياء

* * *

ثقل الكريم بنفسه تعلوا به فوق الزمن
والحزن سم قناتل لا تشربوا سم الحزن
الموت والحسرة الشما والشرف المسكين
هي خير ما نحيا به وهي الغنى للمؤمنين
أما المفضض والمذهب سب والمفوف والنضيد

فلقد تركناها لـ _____ بـاد الحطام وللعبيد

كان الدكتور محمد اقبال الذى ولد فى سنة ١٢٩٧ هـ من أسرة «برهمية» الأصل ، اعتنقت الاسلام منذ ثلاثة قرون ، وهاجرت من «كشمير» الى «البنجاب» نموذجاً يحتذى به للمسلمين فى كل زمان ومكان، ولما لا وهو الذى درس الفلسفة فى «لاهور» على يد السير «توماس ارنولد»، ثم سافر الى كمبردج بالانجلترا ، ثم «ميونيخ» بألمانيا ، لينل درجة الدكتوراة ، ورغم ذلك تمسك بدينه، ودافع عنه ، وجاهد فى سبيله ، مظهرا بعقلانية، وموضوعية، مزاياه.

وقد كافح اقبال طويلا ضد الاستعمار فى كل مكان، ورفض أن يطلب الاستقلال للهند فقط وتحويل الدعوة الانسانية الى مجرد نداء اقليمى ضيق وعلت صرخته حتى بلغت مشارق الأرض ومغاربها بتحطيم أغلال الاستعمار الانجليزى، ليبقى الاسلام، ويبقى المسلمون فى اطارهم الدينى.

وقد كان اقبال رغم انفتاحه على الغرب من خلال دراسته ورحلاته، واحتكاكه بثقافات أخرى غير الثقافة الاسلامية، الا أنه كان ينزع الى الزهد والتصوف ولكن على طريقته الخاصة، التى تفرد بها -فى رأينا- دون سائر من نزعوا الى حياة الصوفية والزهد.

نعم اننا نرى ان اقبال كان شاعرا صوفيا روحانيا فى طليعة من تخصصوا فى «المحبة» و«العشق الالهى» ، بل ان ما نظمه اقبال من شعر دينى وربانى ، يندرج تحت لواء «الشعر الصوفى».

ودليلنا على ان اقبال الذى قال : «كل كلام قدسى المنيع فهو ابداً يتجه الى العلا شاعر صوفى رفيع المستوى، بلغ فى هذا المجال متبهي المنتهى ما جاء فى كتابه «ولله المشرق والمغرب» الذى قسمه اربعة أبواب، وأورد فى الباب الثالث شعراً صوفياً مزوجاً بفلسفة الحياه، واختار له عنوان «الخمير الباقية» مستخدماً «الخمير» كرمز صوفى.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد حيث يمكننا أن نرى بوضوح نزوع اقبال الى التصوف، في دواوين شعره التي نظمها باللغتين الأردية والفارسية» وخاصة ديوانه «أسرار الذاتية ورموز الذاتية» وباقي منظوماته التي ضمنها مناجاة كثيرة من فلسفته وأفكاره .

وقد حاول البعض أن ينسب الى اقبال -زورا وبهتانا - كلاما فيه بعض النقد للصوفية ، ويحاولون أن يربطوا بين ما جاء في كتابه «جناح جبريل» من انكاره لبعض البدع كالالتجار بالأضرحة، ومقابر الأولياء، وبعض التجاوزات الخاصة بالموالد، والصوفية ككل.

وسوف ندعم كلامنا هنا بحديث طويل جرى مع اقبال حول الصوفية ونشر باللغة الأردية بمجلة «الطريق» الباكستانية في شهر اغسطس ١٣٣٥ هـ.

والجدير بالذكر هنا ان اقبال دافع باستماتة عن الصوفية، وعدد مزاياها، وأسهب في الحديث عما قدمته من أجل الخدمات للاسلام، واطهارهم محاسن الدين المحمدي.

وسوف أنقل هنا نص الحديث الذي جرت عملية ترجمته ونشر باللغة العربية ضمن بحث قيم ورد في كتاب «الأعلام الخمسة للشعر الاسلامي» للعالين الجليلين «محمد حسن الأعظمي»، و«الصاوي على شعلان»، وحققه العالم الجليل الدكتور مصطفى غالب.

س: ماذا أفاد الاسلام من المتصوفة؟

ج: لقد قدم المتصوفة في الهند أجل الخدمات الى الاسلام، وأظهروا محاسن الدين المحمدي، لا بالسيف ولا بالحرب، بل بحسن سياستهم ومكارم أخلاقهم، وكان من أثر ذلك أن أسلم على أيديهم ستون مليوناً من جملة المسلمين في الهند، وهم سبعون مليوناً (في عام ١٩١٤) وكل المزايا الانسانية العالية التي تجلت في الهند كانت بفضل تعليمهم ونشاطهم، فهم الذين علموا الانسان كيف يكون انساناً أولاً، ثم علموه كيف يكون مسلماً بعد ذلك.

س: هل أقادوا السياسة الاسلامية في الهند؟

وهل كان لهؤلاء المتصوفة أثر في سياسة الهند الاسلامية؟

ج: لم يكن من عملهم التدخل فى مشكلات السياسة، لأن رسالتهم تتعلق بتزكية النفس، واصلاح الباطن، وتهذيب النفس الأمارة، ولكنهم لم يتخلفوا عن أداء واجبهم حين انحرف بعض السلاطين، فقد قاموا بنصحهم وتوجيههم الى الطريق الأقوم بدون تردد ولا خوف.

س : ما هى تعليم التصوف من وجهة الشؤون الدنيوية؟

ج : فى نظرهم كما هو الحق، أن يحقق النجاح والتقدم للدين والدنيا فى قوت واحد، فالاسلام لا يسمح بالرهبانية والعزلة، واهمال الأهل والأولاد، والانقطاع للخلوة فى الصحارى والغابات.

(كيف تبنى مسجدا للمسلمين ان تركت الأرض للمستعمرين)

والتصوف الاسلامى يرى ان الذي يعيش لنفسه فقط، فهو ينبوع جاف، لا ماء فيه ولا خير منه، وقد يسمح بالخلوة والتفرغ للعبادة والتوجه لله، لذوى المواهب الخاصة، من لهم قدم راسخة فى الروحانية وهم أقل من القليل، وعلى أية حال فإن ترك الدنيا والعزوف عن نعم الله فيها، تعد مخالفة للقانون الالهى، لأن الفطرة تقتضى نمو العمران وامتداد النسل البشرى.

س: منذ متى بدأت مواسم هذه الذكريات التى تطلق عليها كلمة

الموالد فى البلاد العربية أو العرس فى شبه القارة الهندية الباكستانية؟

ج : نظرا الى أن الهناك كانوا يحتفلون بأيام دينية فى مظاهر ومهرجانات تعودوها، فقد نقلت بعض هذه المظاهر فى شكل اسلامي ليأنس به الهناك، الذين اعتنقوا الاسلام حديثا.

س : ما هى أهداف هذه الموالد؟

ج : هى ذكريات لمن تقام من أجلهم لابرار واظهار مزيابهم، وآثارهم الدينية والعلمية، ولهذا ينبغى استغلال هذه الذكريات لايضاح تاريخهم، والكشف عن

أمجادهم وأعمالهم، ولكن من المؤسف بأن بعض الناس لا يفتنون الى هذه المقاصد السامية فيجعلونها تسلية ويتخذونها لهوا ولعبا، فهي عبارة من الأسواق والملاهي والمناظر، وعرض السلع والمنتجات.

س : ولكن ما الذي يفيدنا من طائفة المتصوفة في هذا العصر المتميز بالحركة والجهد والانتاج والعمل الدائب؟

ج : ان هؤلاء المتصوفة لهم حلقات روحية، وأتباع عديدون، وهم يستطيعون ان يوجهوا أتباعهم ومريديهم نحو الحياة الفاضلة والمشاركة في كل الميادين العملية والمفيدة للمجتمع، وكثيرا ما كانوا مصدرا للنهضة واليقظة للأمة (نذكر مثلاً: في الحروب الصليبية بمصر، كيف قاد الامام أحمد البدوي مريديه، بعد أن دربهم ونظمهم، وشكل منهم جيشا يجمع بين الايمان والعمل، واتجه بهم الى معسكرات الأسرى التي تضم المئات من جنود الشعب المصري فحررهم وفك أسرهم، وشارك بهم وبقية مريديه في الواقعة، حتى جاء نصر الله، وعاد الى صومعته معلما وعابدا، ونقل الى عصرنا القريب فتذكر الامام السنوسي الأكبر، وكيف وقف بجيوشه ضد غزاة الشمال الافريقي نحو عشرين عاما، حتى اذا مات خلفه الامام البطل الشيخ عمر المختار، ونذكر الزعيم الصوفي الأمير عبدالكريم الخطابي، وهذه مواقفه الجليلة ضد جيوش الاحتلال، لا تزال ترن في أذهان الناس (أنظر للتفصيل مجلة الشبان المسلمين القاهرية).

س : ما قولك في كرامات الأولياء؟

ج : أعتقد في كرامات الأولياء، فإن النفوس التي وهبها الله قلوبا وأدمغة خالصة، ممن بلغوا الكمال في تزكية النفس، وعلى تعبير البعض بأنهم يستطيعون أن يرجعوا السهم الى القوس بعد انطلاقه، والماء الى ينبوع بعد فيضانه.

س : أترى من المستحسن زيارة القبور، أو ترى غير ذلك؟

ج : اذا كان هدف الزيارة طلب الحاجات من اصحابها، كما تطلب من الله عز وجل، فاني اخالف هذا كل المخالفة، واعتبر ذلك اثما وجرما كبيرا فاذا كان الهدف هو العبرة

وتذكر الموت، الدعاء لهم، فلا بأس بذلك، بل هو مطلوب، وأرى فوق ذلك أن في زيارة هذا المواطن مما يتحقق به تزكية الباطن.

س : هل نحتاج الى مرشدين أو لا ؟

ج : الانسان يحتاج الى مرشد الذي يوجهه الى الطريق الأقوم، وصاحب القلب النقي يستفيد من هداية المرشد، ممن لهم روح كبيرة، وفيهم حرارة وألم، وكل مريد ترتفع أخالقه وتحسن سيرته وسلوكه، من صحبة المرشدين شريطة أن لا يكونوا تجارا ولا محترفين.

س: لم نجد في الوقت الحاضر أمثال أولئك المرشدين ؟

ج : مرد هذا الى أن مجتمعنا الحاضر قد تعري من مزايا تلك الأزمنة، وأذواقها وعلى سبيل الايضاح نقول: إننا نرى العلماء والمخترعين والعباقرة تمتلئ بهم أوروبا وفيما وراء البحار، بينما لا نجد لدينا الا القليل النادر ، وسبب هذا أن المجتمع هناك يقدر الجهود العلمية والفنية ويفسح المجال أمام ذوى الخبرة ليمارسوا استخدام قدراتهم فيما يرفع من شأنهم بالتشجيع والتقدير ، بينما لا يجد الموهوبون هنا غير اطفاء نور الموهبة، وتعويق سيرهم عدا الحالات، فمثلا بوذا الذى ولد فى بيت ملك، وشاهد المجتمع من حلوه نشوان بالرفاهية والنعمة، أو مبتلي بالفاقة والعدم، فأحس بذلك وظن أن كل آلام الانسانية، هي آلامه، فاضطربت روحه وترك الملك والدولة، ووقف حياته للإصلاح، والمثل الأعلى في حياة العرب أنهم كانوا أبدا في حروب، ووأد بنات، وكل عيوب الدنيا كانت لديهم فجاء شخص من رب العزة رسولا الذي هو أكبر نموذج ومثال للرحمة، وكان العرب يشعلون الحرب لأسباب تافهة وتستمر الحرب إلي عشرات السنين، وبدل آله واحد كانوا يعبدون الهة عديدة من صنع أيديهم، ويقدسون أشخاصا ويفتخرون بالشراب والمجون، ولا يعرفون للعدل والفضل قانونا، ينظم معيشتهم لأجل هذا بعث النبي الذي كان رحمة للعالمين فجعل هذه المنطقة العربية منطقة يعتز بها مسلمو العالم أجمع، ويبدلون أرواحهم فداء لمكة المكرمة والمدينة المنورة.

هكذا كان العالم الروحي المسلم الفيلسوف محمد إقبال الشاعر الصوفي الذي عبر عن نزعتيه إلى التصوف بقصائد رائعة لم يزل يشدو وبها العالم الإسلامي، ويتغني بها أولئك الذين قد تعلقوا بالحب الالهي، وهاموا به، وبلغوا فيه منتهى المنتهى.

وسوف نقدم هنا أعظم أشعار إقبال، وهما قصيدتان شهيرتان أحدهما بعنوان «شكوي» والأخرى «جواب شكوي». وفي القصيدة الأولى يصور أشجانه والآمه ويتضرع إقبال إلى الله يسأله عمن سبب ما آل إليه المسلمون من ضعف وفرقة وتأخر بعدما بلغوا في عصور مضت أوج عظمتهم وتقدمهم.

وفي القصيدة الثانية يتخيل إقبال صوتا سماويا يدوي بصيحة الحق جواباً لهذه الشكوي:

«شكوي»:

شكواي أم لجواي في هذا الدجي	ولجؤم ليلى حسدي أم عودي
أمسيت في الماضي أعيش كأنما	قطع الزمان طريق أمسي عن غدي
والطير صادحة علي أفنانها	تبكي الربى بأنينها المتجدد
قد طال تسهيدي وطال نشيدُها	ومدامعي كالطل في الغصن الندي
فالي متي صمتي كأنني زهرة	خرساء لم ترزق براعة منشد

* * *

قيشارتي ملئت بأنات الجوي	لابد للمكبوت من فيضان
صعدت إلي شفتي بلابل مهجتي	ليبين عنها منطقي ولساني
أن ماتعديت القناعة والرضا	لكنما هي قصة الأشجان
أشكو وفي فمي التراب وإنما	أشكو مصاب الدين للديان
يشكو لك اللهم قلب لم يعش	الا لحمد علاك في الأكوان

* * *

قد كان هذا الكون قبل وجودنا
والورد في الأكمام مجهول الشذي
بل كانت الأيام قبل وجودنا
لما أطل محمد زكتُ الربّي
وأذاعت الفرد وس مكنون الذي
روضا وأزهارا بغير شميم
لا يرتجي وردٌ بغير نسيم
ليلاً لظالمها وللمظلوم
واخضر في البستان كل هشم
فلذا الوري في نضرةٍ ونعيم

* * *

من قام يهتف باسم ذاتك قبلنا
عبدوا تماثيل الصخورٍ وقدسوا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالةً
هل أعلن التوحيد داع قبلنا
كنا نقدم للسيوفِ صدورنا
من كان يدعو الواحدَ القهارا
من دونك الأحجارَ والأشجارا
لم يلبسوا من هديها أنوارا
وهدي الشعوب إليك والأنظارا
لم نخش يوما غاشماً جبارا

* * *

قد كان في اليونان فلسفةٌ وفي الـ
لم تغن عنهم قسوةٌ أو ثروة
وبكل أرضٍ سامري ماكرٌ
والحكمة الأولى جرت وثنيةً
نحن الذين بنورٍ وحيكٍ أوضحوا
رومان مدرسة وكان الملكُ في ساسانٍ
في المالِ أو في العالم والعرفانٍ
يكفي اليهودَ موثنةُ الشيطانِ
في الصينِ أو في الهندِ أو تورانِ
نهجَ الهدي ومعالِمَ الايمانِ

* * *

من ذا الذي رفع السيوفَ ليرفعَ اسمـ
كنا جبّالا في الجبال وربما
بمعابد الأفرنج كان أذاننا
لم تنس أفريقيا ولا صحراؤه
كفوق هامات النجوم منارا
سرنا علي موج البحار بحارا
قبل الكتائب يفتح الأمصارا
سجداتنا والأرض تقذف نارا

وكان ظل السيف ظل حديقة خضراء تنبت حولنا الأزهارا

لم تحش طاغوتنا يحاربنا ولو
ندعو جهارا لا اله سوي الذي
ورؤوسنا يارب فوق أكفنا
كنا نري الأصنام من ذهب
لو كان غير المسلمين لحازها
نصب المنايا حولنا أسوارا
صنع الوجود وقدر الأقدارا
نرجو ثوابك مغنما وجوارا
فنهدها ونهدم فوقها الكفارا
كنزا وصاغ الحلي والدينارا

كم زلزل الصخر الأشم فما وهي
لو أن أساد العرين تفزعت
وكان نيران المدافع في صدور
توحيدك الأعلي جعلنا نقشه
فغدت صدور المؤمنين مصاحفا
من بأسنا عزم ولا إيمان
لم يلق غير ثباتنا الميدان
ر المؤمنين الروح والريحان
نورا تضي بصبحه الأزمان
في الكون مسطورا بها القرآن

من غيرنا هدم التماثيل التي
حتي هوت صور المعابد سجدا
ومن الأهلي حملوا بعزم أكفهم
أمن رمي نار المجوس فأطفئت
ومن الذي بذل الحياة رخيصة
كانت تقدسها جهالات الوري؟
جلال من خلق الوجود صورا
باب المدينة يوم غزوة خيبر؟
وأبان وجه الحق أبلغ نيرا؟
ورأي رضاك أعز شيء فاشترى؟

نحن الذين استيقظت بأذانهم
نحن الذي إذا دعوا لصلاتهم
جعلوا الوجوه إلي الحجاز وكبروا
محمود مثل أياز^(١) قام كلاهما
العبيد والمولي علي قدم التقي
سجداً لوجهك خاشعين علي الثري

* * *

بلغت نهاية كل أرض خيلنا
في محفل الأكوان كان هلالنا
في كل موقعة رفعنا راية
أم البرايا لم تكن من قبلنا
بلغت بنا الأجيال حرياتنا
وكأن أبحرنا رمال البيد
بالنصر أوضح من هلال العيد
للمجد تعلن آية التوحيد
إلا عبيداً في أسار عبيد
من بعد أصفاد وذل قيود

* * *

رحمك رب هل بغير جباهنا
كانت شغاف قلوبنا لك مصحفنا
إن لم يكن هذا وفاء صادقاً
ملاً الشعوب جناتها وعصاتها
فاذا السحاب جري سقاها غيتة
عرف السجود بيئتكم المعمور؟
يحيوي جلال كتابك المسطور
فالخلق في الدنيا بغير شعور
من ملحد عات ومن مغرور
واختصنا بصواعق التدمير

* * *

قد هبت الأصنام من بعد البلي
واستيقظت من قبل نفخ الصور

(١) السلطان محمود الغزنوي وأياز خادمه.

والكعبة العليا توارى أهلها
وقوافل الصحراء ضل حداثها
أنا ما حسدت الكافرين وقد غدوا
بل محنتي ألا أري في أمتي
فكأنهم موتى لغير نشور
وغدت منازلها ظلال قبور
في أنعم ومواكب وقصور
عملاً تقدمه صداق الحور

لك في البرية حكمة ومشية
إن شئت أجريت الصحاري أنهرًا
ماذا دهي الاسلام في أبنائه
فثراؤهم فقر ودولة مجدهم
أعيت مذهبها أولى الألباب
أو شئت فالأنهار موج سراب
حتى أنطوا في محنة وعذاب
في الأرض نهب ثعالب وذئاب
عن ذنبه في الدهر يوم عقاب
عاقبتنا عدلاً فهب لعدونا

عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم
الدين يحيا في سعادة أهله
أين الذين بنار حبك أرسلوا الـ
سكبوا الليالي في أنين دموعهم
للموت بين الذل والأملاق
والكأس لا تبقي بغير الساق
أنوار بن محافل العشاق
وتوضأوا بمدامع الأشواق
نهدى الضياء وجوههم
والشمس كانت من ضياء وجوههم

كيف انطوت أيامهم وهم الألي
هجروا الديار فأين أزمع ركبهم
من يهتدي للقوم أو من يقتدي
يا قلب حسبك لن تلم بطيفهم
نشروا الهدى وعلوا مكان الفرقد
الا علي مصباح وجه محمد

يا فسرحة الأيام حين نري بها
ويعود محفلنا بحسبك مسفراً
قد هاج حزني أن أري أعداءنا
ونعالج الأنفاس نحن ونصطلي
أشرق بنورك وأبعث البرق القديـ
روض التجلي وارف الأغصان
كالصبح في اشراقه الفينان
بين الطلا والظل والأحسان
في الفقر حين القوم في بستان
م بومضة لفراشك الظمان

أشواقنا نحو الحجاز تطلعت
إن الطيور وإن قصصت جناحها
قيثارتي مكبوتة ونشيداً
واللحن في الأوتار يرجو عازفاً
والطور يرتقب التجلي صارخاً
أكبادنا احترقت بأنات الجوي
والعطر فاض من الخمائل والري
أو ليس من هول القيامة أن يكو
النمل لا يخشي سليمان إذا
أرشد براهمة الهند ليرفعوا الإ
كحني مغترب إلي الأوطان
تسمو بفطرتها إلي الطيران
قدم من صمت ومن كتمان
ليبوح من أسرار بهمان
بهوي المشوق ولهفة الخيران
ودماؤنا نهر الدموع القاني
وكأنه شكوي بغير لسان
ن الزهر نماماً علي البستان
حرس قراه عناية الرحمن
سلام فوق هياكل الأوثان

ما بال أغصان الصنوبر قد نأت
وتعرت الأشجار من حلل الرب
يارب الابلابل لم ينتظر
أحانه بحر جري متلاطم
عما قماريها بكل مكان
وطيورها فرت إلي الوديان
وحي الربيع ولا صبا نيسان
فكأنه الحساكي عن الطوفان

ياليت قومي بسمعون شكايه هي في ضميري صرخة الوجدان

ان الجواهر حيرت مرآة ه
أسمعهموا يارب ما ألهمتي
وأذقهم الخمر القديمة إنها
أنا أعجمي الدن لكن خمرتي
ان كان لي نغم الهنود ولحنهم
هذا القلب فهو علي شفا بركان
وأعد اليهم بقظة الإيمان
عين اليقين وكوثر الرضوان
صنع الحجاز وكرمها الفينان
لكن هذا الصوت من عدنان

جواب شكوي:

كلام الروح للأرواح يسري
هتفت به فطار بلا جناح
ومعدنه ترابي ولكن
لقد فاضت دموع العشق مني
فخلق في ربي الأفلاك حتي
وتدركه القلوب بلا عناء
وشق أنينه صدر الفضاء
جرت في لفظه لغة السماء
حديثا كان علوي النداء
أهاج العالم الأعلى بكائي

تجاوزت النجوم وقلن صوت
وجاوبت المجرة علي طيقا
وقال البدر هذا قلب شاك
ولم يعرف سوي رضوان صوتي
ألم أك قبل في جنات عدن
بقرب العرش موصول الدعاء
سري بين الكواكب في خفاء
يوصل شدوه عند المساء
وما أحراه عندي بالوفاء
فأخرجني إلي حين قضائي

وَقِيلَ هُوَ ابْنُ آدَمَ فِي غُرُورٍ
لَقَدْ سَجَدْتُ مَلَائِكَةُ كَرَامٍ
يُظَنُّ الْعِلْمُ فِي كَيْفٍ وَكَمْ
وَمَلَأَ كَوْوُسِيهِ دَمْعٌ وَشَكْوِي
فِيَا هَذَا لَقَدْ أَبْلَغْتَ شَيْئًا
تَجَاوَزَ قَدْرُهُ دُونَ أَرْعَاءٍ
لِهَذَا الْخَلْقِ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ
وَسِرُّ الْعَجْزِ عَنْهُ فِي انْطَوَاءٍ
وَفِي أَنْغَامِهِ صَوْتُ الرِّجَاءِ
وَإِنْ أَكْثَرْتَ فِيهِ مِنَ الْمَرَاءِ

عَطَايَانَا سَحَائِبَ مَرَسَلَاتٍ
وَكُلَّ طَرِيقِنَا نُورٌ وَنُورٌ
وَلَمْ نَجِدْ الْجَوَاهِرَ قَابِلَاتٍ
وَكَانَ تَرَابُ آدَمَ غَيْرَ هَذَا
وَلَوْ صَدَقُوا وَمَا فِي الْأَرْضِ نَهْرٌ
وَلَكِنْ مَا وَجَدْنَا السَّائِلِينَ
وَلَكِنْ مَا رَأَيْنَا السَّالِكِينَ
ضِيَاءَ الْوَحْيِ وَالنُّورِ الْمُبِينِ
وَإِنْ يَكْ أَصْلُهُ مَاءٌ وَطِينًا
لَأَجْرِنَا السَّمَاءَ لَهُمْ عِيُونًا

وَأَخْضَعْنَا لِلْمَلِكِهِمُ الثَّرِيَا
وَلَكِنْ أَلْخَدُوا فِي خَيْرِ دِينٍ
تَرَاثُ مُحَمَّدٍ قَدْ أَهْمَلُوهُ
تَوَلَّى هَادِمُوا الْأَصْنَامَ قَدَمَا
أَبَاهُمْ كَمَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ لَكِنْ
وَشَيْدْنَا النُّجُومَ لَهُمْ حَصُونَا
بَنِي فِي الشَّمْسِ مَلِكِ الْأُولَيْنَا
فَعَاشُوا فِي الْخَلَائِقِ مَهْمَلِينَا
فَعَادَ لَهَا أَوْلَئِكَ يَصْنَعُونَا
أَرَى أَمْثَالَ آزَرَ فِي الْبَنِينَا

وَفِي أَسْلَافِكُمْ كَانَتْ مَزَايَا
تَضُوعُ شَقَائِقُ الصَّحَرَاءِ عَطْرًا
بِكُلِّ فَمٍ لَذِكْرَاهَا نَشِيدُ
بَرِيَاهَا وَتَبْتَئِسَمُ الْوَرُودُ...

فهل بقيت محاسنهم لديكم
لقد هاموا بخالقهم فناء
وكوثر أحمد منكم قريب
فجعل في دلائلكم الصدود
فلم يكتب لغيرهم الخلود
ولكن شوقكم عنه بعيد

* * *

وكم لاح الصباح سنا وبشري
وكبرت الخمائل في رباها
ونوم صباحكم أبداً ثقيلاً
وأضحى الصوم في رمضان قيلاً
تمدن عصركم جمع المزايا
وأذنت القماري والطيور
مصلياً فجاءوها الغدير
كأن الصبح لم يدركه نور
فليس لكم به عزم صبور
وليس بغائب الا الضمير

* * *

لقد ذهب الوفاء فلا وفاء
إذا الايمان ضاع فلا أمان
ومن رضي الحياة بغير دين
وفي التوحيد للههم اتحاد
تساندت الكواكب فاستقرت
وكيف ينال عهدي الظالمين
ولا دنيا لمن لم يحيي ديناً
فقد جعل الفناء لها قريناً
ولن تبوا العلامتفرقين
ولولا الجاذبية ما بقين

* * *

غدوتم في الديار بلا ديار
وكل صواعق الدنيا سهام
أهذا الفقر في علم ومال
وبيع مقابر الأجداد أضحى
وأنتم كالطيور بلا وكور
لبيد ركم وأنتم في غرور
وأنتم في القطيعة والنفور
لدي الأحفاد مدعاة الظهور

سيعجب تاجرو الأصنام قدمًا إذا سمعوا بتجار القبور

* * *

مَنْ المتقدمون إلي المعالي
وَمَنْ جبهاتهم أنوارُ بيتي
أما كانوا جدودكمُ الأولي
وليس لكم من الماضي تراثٌ
ومن يكُ يومه في العيش يأسًا
فما غده سوي يومِ العذابِ
علي نهج الهداية والصوابِ
وفي أخلاقهم يُتلى كتابي
بناة المجدِ والفنِ العجَابِ
سوي شكوي اللغوب والاكثابِ
فما غده سوي يومِ العذابِ

* * *

أتشكو أن تري الأقوامَ فازوا
مشوا بهدي أوائلكمُ وجدوا
أُحرمَ عاملٌ ورد المعالي
أليس من العدالة أن أرضي
تجلي النور فوق الطورِ باق
بمجدٍ لا يراه النائمونَا
وضيعة من تراث الأولينا
ويسعد بالرقي الخاملونَا
يكون حصادها للزارعينَا
فهل بقي الكليم بطورِ سينَا؟
أشكو أن تري الأقوامَ فازوا
مشوا بهدي أوائلكمُ وجدوا
أُحرمَ عاملٌ ورد المعالي
أليس من العدالة أن أرضي
تجلي النور فوق الطورِ باق

* * *

ألم يبعث لأمتكم نبي
ومصحفكم وقبلتكم جميعًا
وفوق الكل رحمنٌ رحيمٌ
فما لنهار الفتكم تولي
وحسن اللؤلؤ المنكون رهنٌ
يوحدكم علي نهج الوئام
منار للأخوة والسلام
اله واحد رب الأنعام
وأمسيتم حيارى في الظلام
بصوغ العقيد في حسن النظام

* * *

وكيف تغيرت بكم الليالي
تركتم دينَ أحمد ثم عدتم
رقي الشعب قد أضحي لديكم
وكيف تقاس أوهاًم ولغو
أري ناراً قد انقلبت رماداً
وكيف تفرقت بكم الأمان
ضحايا للهوي أو للهوان
تقرره صلاحية الزمان
بحكمة منزل السبع المثاني
سوي ظل مريض من دخان

* * *

أري الفقراء عبادة تقاة
هم الأبرار في صوم وفطر
وليس لكم سوي الفقراء ستر
أضلت أغنياءكم الملامي
وأهل الفقر مازالوا كنوزاً
قياماً في المساجد راكمينا
وبالأسحارهم يستغفروننا
يواري عن عيوبكم العيونا
فهم في ربيهم يترددونا
لدين الله رب العالمين

* * *

أري التفكير أدركه خمول
وأصبح وعظكم من غير سحر
وعند الناس فلسفة وفكر
وجلجلة الأذان بكل أرض
منائرهم علت في كل حي
ولم تبق العزائم في اشتغال
ولأنور يطل من المقال
ولكن أين تلقين (الغزالي)
ولكن أين صوت من بلال
ومسجدكم من العباد خالي

* * *

فأين أئمة وجنود صدق
إذا صنعوا فصنعهم المعالي
تهاب شبابة عزيمهم الحراب
وإن قالوا فقولهم الصواب

مرادهم الاله فلا رياءَ
لأمتهم وللأوطان عاشوا
كمثل الكأس تبصرها دهاقا
ونهجهم اليقين فلا ارتيابُ
فليس لم إلي الدنيا طلاب
وليس لأجلها صنَعُ الشرابُ

* * *

جهاد المؤمنين لهم حياةُ
عقائدهم سواعد ناطقات
وخوفُ الموتِ للأحياء قبرُ
أري ميراثهم أضحى لديكم
وليس لوارثٍ في الخير حظُ
ألا أن الحياةُ هي الجهادُ
وبالأعمالِ يثبت الاعتقادُ
وخوفُ الله للأحرارِ زادُ
مضاعاً حيث قد ضاع الرشادُ
إذا لم يحفظَ الأثرُ اتحادُ

* * *

لأي مائر القوم انتسبتم؟
فأين مقامُ ذي النورين منكم
وفقرُ علي الأواب هلا
أقمتم في الذنوب وفي الخطايا
وهم ستروا عيوب الخلق فضلا
لتكتسبوا فخار المسلمينا
ودولة عزة دنيا ودينا
ريحتُم فيه كنز الفاتحينا
وتفتابون حتي الصالحينا
وان كانوا أبر المتقيننا

* * *

أريكة قيصر وسرير كسري
وأنتم تطمحون إلي الثريا
تضيعون الأخاء وهم أقاموا
طلبتم زهرة الدنيا وعاء
قد احتميا بملكهم العميم
فلا عزم ولا قلب سليم
صروح أخائهم فوق النجوم
بلا زهر يضرع ولا شميم

وكان لديهم البستان محضاً وهم أصحابُ جناتِ النعيمِ

* * *

يعيد الكون قصتهم حديثاً فكم نزحوا عن الأفكارِ شوقاً
وبأس شبابكم أدمي خطاهم هي المدينةُ الحمقاء ألفت
لقد صنعت لهم صنم الملاهي وينشئ من حديثهم الفنونا
إلي التحليقِ فوقَ العالمينا فظنوا فيه بالدين الظنوناً
بهم حولَ المذاهبِ حائرنا لتحجبَ عنهم الحرمَ الأميناً

* * *

لقد سئمَ الهوي في البیدِ قيسُ يحاول أن يباحَ العشقُ حتي
يريد سفور وجه الحسن لما " فهذا العهدُ أحرقَ كل غرسٍ
لقد أفنت صواعقه المغاني ومل من الشكاية والعذابِ
يري ليلاه وهي بلا حجابِ رأي وجهَ الغرامِ بلا نقابِ
من الماضي وأغلقَ كل بابِ وعاثت في الجبال وفي الهضابِ

* * *

هي النارُ الجديدة ليس يلقي لها حطبُ سوي المجد القديم
خـذوا إيمان إبراهيم تنبت لكم في النارِ روضات النعيمِ
ويذكو من دم الشهداء وردٌ سني العطر قدسي النسيمِ
ويلمعُ في سماءِ الكونِ لونٌ من العنابِ مخضوب الأديمِ
فلا تفزع إذا المرجانُ أضحي عقوقاً للبراعم والكرومِ

* * *

فكم زالت رياضُ من رباها وكم بادت نخيل في البوادي

ولكن نخلة الإسلام تنمو
ومجدك في حمي الإسلام باق
وأنت يوسف في أي مصر
تسير بك القوافل مسرعات

* * *

ضياؤك مشرق في كل أرض
بغت أمم التتار فأدركتها
وأصبح عابد والأصنام قدما
فلا تجزع فهذا العصر ليل
ولا تخش العواصف فيه وانهض

* * *

أعد من مشرق التوحيد نوراً
وأنت العطر في روض المعالي
وأنت نسيمه فاحمل شذاه
وأرسل شعلة الإيمان شمساً
وكن في قمة الطوفان موجاً

* * *

فباسم محمد شمس البرايا
تلاً في الرياض وفي الصحاري
ونبض الكون منه مستمد
ومن مراكش يغزو صدهاء
ومما مشكاة هذا النور الا

* * *

ورفع الذكر للمختار رفع
فكن إنسان عين الكون وأشهد
بخنجر عزمك الوثاب لاحت
نداؤك في العناصر مستجاب
وعقلك في الخطوب أجل درع
لقدرك نحو غايات الكمال
مقامك عالياً فوق المعالي
علي الأعلام أنوار الهلال
إذا دوي بصوت من بلال
وعشقك خير سيف للنضال

* * *

خليفة هذه الأرض استقرت
وفي تكبيرك القدسي يبدو
فيما من هب للإسلام يدعو
سترفع قدرك الأقدار حتي
وقيل لك احتكم دنيا وأخري
بمجدك وهو للدنيا سماء
صغيراً كل ماضٍ الفضاء
وأيقظ صدق غيرته الوفاء
تشاهد أن ساعدك القضاء
وشأنك والخلود كما تشاء

* * *

كل المنى..

أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن
من النور في أيديهم عشر معشاري
فإنني بعفو منك أحیی بقربه
وغش بيسر منك فقري واعساري
« ذا التون المصري »

من بين أشهر رجال الصوفية فى الإسلام أبو الفاضل
ثوبان بن إبراهيم ذو النون المصرى، ولد بأخميم من أعماق
صعيد مصر، ويبدو من أيامه أنه كان نوبيا وان ذا النون
كان عبدا ثم أعتق . وقد قيل ان ذا النون اعتاد أن يطوف
بين الآثار المصرية القديمة يدرس رموزها ويحاول حلها،
وقد درس أيضاً بعض علوم الطب والكيمياء والسحر،
ويقال إن سعدون الصوفى المصرى كان معلمه ورائده
الروحى.

وقد سافر ذو النون إلى مكة ودمشق وزار بعض النساك المقيمين الى الجنوب من
أنطاكيا وفى أثناء هذه الأسفار توصل ذو النون الي التضلع فى التنسك وكبح جماح
النفس.

من بين ما روى عن ذى النون أنه كان ذات مرة مبحرا مع تلامذته فى قارب بالنيل
فاقترب منهم قارب آخر به رهط من المعيدى احنقت تصرفاتهم أتباع ذى النون فطلبوا
إليه أن يدعو الله ضارعاً اليه إغراق أهل القارب ، لكنه اتجه الى ربه قائلاً «يارب لتنعم
على هؤلاء القوم السعداء فى هذه الحياة الدنيا بعيشة مثلها هنيئة فى الحياة الأخرى»،
الأمر الذى اثار دهشة أتباعه.

ثم اقترب القارب الآخر منهم وأبصر من فيه ذا النون فخروا بكيا فى توبه لله.

وعند ذلك قال ذو النون لصاحبه «ان المعيشة الرغدة فى الحياة الأخرى هى ثمرة التوبة
فى هذه الحياة، وها أنتم وهم الآن راضون دون حاجة إلى إنزال ضرر بأحد»، وروى
أيضاً أن ذا النون كان مسافرا ذات يوم من القدس إلى مصر فالتقى بامرأة عجوز تحمل
عكازا وترتدى جبة صوفية فسألها من أين جاءت فأجابته «من عند الله» فقال «وأين أنت
ذاهبة» فأجابت «إلى الله» فأخرج عند ذلك عملة ذهبية وقدمها اليها فنادت عليه قائلة «أى
ذا النون انما الرأي الذى كونته عنى إلا ثمرة لتفكير ذكائك القاصر، فأنا أهمل لوجه الله

ولا أقبل شيئاً من أحد سواه. أنا أعبدته وحده، ولا آخذ شيئاً إلا منه وحده». وولت على أثر قولها في طريقها تاركة ذا النون يتمعن في كلماتها.

وتحدث ذو النون عن أسفاره للبحث عن سبل الخلاص طيلة حياته «١٨٠- ٢٤٥هـ) قال: «لقد حصلت في أول أسفاري علما يرضى الخاصة والعامة، وحصلت في ثانيها علما يرضى الخاصة دون العامة وفي ثالث أسفار» حصلت من العلم ما لم ترض به لا الخاصة ولا العامة فغدوت شريداً طريداً. لقد حصلت العلم في المرة الأولى والتوبة وهي مقبلة لدى الخاصة والعامة على حد سواء. وفي المرة الثانية وصلت الي التوكل على الله ومعاملته ومحبته وهي شئون تتقبلها الخاصة ولا تتفهمها العامة، وفي المرة الثالثة وصلت الى الحقيقة التي تسمو على العلم والعقل فأعرضا عنها لم يفهماها.

وقد كان ذو النون مضطهداً من أجل تدريسه الصوفية علانية حتي انه قبض عليه في أواخر أيامه وأرسل به الى بغداد حيث سجن مع السماح لصدقائه الصوفيين بزيارته إلى أن عفى عنه بأمر من الخليفة فعاد الى مصر حيث وافاه الأجل بمدينة الجيزة.

وهكذا، فقد كان ذو النون في أول الأمر متنسكاً متقشفاً، زهد العالم في الوحدة والعزلة حيث تدرّب على كبح رغبات نفسه إلى أن تغلب عليها ثم سار عن طريق التوبة والتطهر الى أن حظى بهبة المعرفة فأصبح في آخر الأمر صوفياً عارفاً بالله، وهو يكاد أن يكون صوفياً تكلم عن المعرفة ووصف المراحل المختلفة التي تجتازها الروح في سبيلها الى الوصول الي الله والعثور عليه.

ولذي النون أشعار رائعة تعكس رقة عشقه، وقوة إيمانه، منها قصيدته «كل المنى»:

أموتُ وما ماتت إليك صبابتي ولا رويتُ من صدقِ حبِّك أوطاري
منأى المنى كلُّ المنى أنت لى منى وأنت الغنى كل الغنى عند أقصاري

* * *

وأنت مدى سُؤلى وغايةُ رغبتي ومضعُ شكواي ومكنونُ إضماري
تحملَ قلبي فيك مالا أبشّه وإن طالَ سقمي فيك أو طالَ إضراري

* * *

وبين ضلوعى منك ما لولاك قد بدا ولم يبدُ باديهِ لأهلي ولا جارى
وبى منك فى الأحشاء داءٌ مخامرٌ فقد هدمنى الركن وأثبت أسرارى

* * *

ألست دليلَ الركبِ إن هم تحيروا ومنقذ من أشفى على جرف هارى
أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن من النورِ فى أيديهم عشر معشارى

* * *

فئلنى بعفوٍ منك أحيى بقربه وغشَّ يسرٍ منك فقرى وإعسارى

* * *

مالی سوارہک...

مالی سوارہک اُغشٹی
وہل سوارہک نصیر
ولی إلیک شفیع
بدر المساء المنیر
« أحمد الحلوانی »

الشيخ العلامة أبو عبد الرحيم أحمد بن اسماعيل
الخلواني الشافعي أحد الذين يمثلون السمو الروحي في
الأدب الصوفي. وقد ولد الخلواني في إحدى قرى
محافظة الغربية (رأس الخليج) سنة ١٢٤٩ هـ وحفظ
القرآن صغيراً، ثم سرعان ما اتجه الى دراسة علوم الدين
واللغة، وظل كذلك حتى التحق بالأزهر الشريف حيث
تلقى العلم على يد اعلام عصره كالقصبى والباجورى
والشبراوى.

وقد ترك الخلواني تراثاً شعرياً صوفياً رائعاً ما بين اشعار وابتهالات واذكار صوفية
لطالما تغنى بها المنشدون طيلة حياته، وبعد مماته فى سنة ١٣٠٨ هـ.
وسنقدم هنا لأحمد الخلواني ابتهالاً صوفياً شديد الرقة والعذوبة بعنوان «مالى
سواك».

استغفر الله ربى	فأله رب غفور
مما جنأه جنائى	أو اللسان العثور
أو الجوارح منى	فإنها قد تشور
أو ظاهر ليس يخفى	أو باطن مستور

* * *

أستغفر الله مما	قد قلته وهو زور
ومن تناس بناس	عمن هو المذکور
ومن خلاف أنور	أنا بهما مأثور
أستغفر الله مما	جرى به المقسور
من كل أمر معيب	قد كنت فيه أمور

* * *

لم يرض ربى وقلبى	بكسبه مسرور
------------------	-------------

إن سـرتُ يـوماً إليـه
وعند أولِ جـزء
وإن توخيتُ خـيـراً
وإن تهـممتُ يـوماً
أطـير حين أسـير
منه يجيء الأخـير
صرفاً فكم أسـتـخير
إليه جاء القـتـور

وللتـقـدم أنوى
هـبـنى تقـدمتُ، ما ذا
وهـبـه غـيـر نفـور
عـدمتـه من فـؤاد
فيمـرض التـأخـير
يُجـلـدى وقلـبي نفـور
هل فـيـه ثم حـضـور
عند الصـلاة يطـير

أنوى فـيـيـه ذهـبُ لبـى
أظـلُّ أحـسـبُ فـيـهـا
كـيـأنتـي بـجـسـابـى
فلو تـرانى فـيـهـا
ففى العـبـادة طـرفـى
وفى السـذـنـوب فـؤادى
وفى السـلام يحـور
وما تـحتـويه الدـهور
مـيـؤكـل أو أجـيـبـر
لـقلتُ: ذا مـبـهـور
ولو بـصـيـراً ضـرير
على عـمـاهُ بـصـير

يا ويلـنا من ذنـوب
ومن خُطـاي اللـواتى
وآه من كُـلِّ إثم
ومن مقاصـد سوء
فـجـورها مـفـجـور
إلى الخـطـى تـسـتـطـير
عليه يطوى الضـمـير
جـرى به التـعـبـير

شـيءٌ ومـن، لـستُ أدري؟
فـذاك شـيءٌ كـثـير

قَبَائِحُ كُنْتُ فِيهَا
مَاتت وَعَاشَتْ، فَقَلْبِي
سُرُورُ مِنْهَا زَمَاناً
نَسِيتُهَا وَدَعَاها
أَسْرَى وَطُورُ أُسَيْرُ
مِنْ أَجْلِهَا مَفْطُورُ
وَعَمُّهَا مَذْخُورُ
كَتَبْتُ بِأَبِي الْمَسْطُورُ

مَـا إِذَا أَقُولُ لِرَبِّي
يَا رَبِّ أَنْتَ رَحِيمٌ
يَا رَبِّ أَنْتَ عَفْوَ
يَا رَبِّ إِنِّي حَقِيرٌ
إِذَا بَدَأَ التَّحْرِيرُ
وَيَا سَمَّاحَ جَدِيرُ
وَأَنْتَ رَبُّ قَدِيرُ
جَدّاً وَأَنْتَ الْكَبِيرُ

وَشَأْنُ مَنْ جَلَّ يَغْضَى
وَأَيْنَ تُرْبُ خَسِيسُ
وَمَا أُرِيدُ احْتِجَاجاً
أَجْرُ عَبْدِكَ يَا مَنْ
إِذَا أَسَاءَ الْحَقِيرُ
مِنْ رَبِّهِ يَا مُجِيرُ
عَلَيْكَ بَلْ أَسْتَجِيرُ
سِوَاهُ لَيْسَ يُجِيرُ

مَالِي سِوَاكَ أَغْثَنِي
وَلِي إِلَيْكَ شَفِيعُ
غُثُوثِ الْأَنْثَامِ الْمَرْجَى
بِهِ تَوَسَّلْتُ فَأَجْبِرُ
وَهَلْ سِوَاكَ نَصِيرُ
بَدْرُ السَّمَاءِ الْمُنِيرُ
إِذَا الْمَسَاءُ تَمُورُ
كَسْرِي، فَإِنِّي كَسِيرُ
مَا فَضَّلْتُهُ التَّحَايَا
مَافَاضٍ مِنْهُ النُّورُ

مجاهدة النفس..

وذلك لأن الناس قد آثروا الهوى
على الحق سرّاً ثم جهراً علاناً
فهذا زمان الشر فاحذر سبيله
فإن سبيل الشر يروى المهاوى
« الأنطاكي »

هذا الصوفى الكبير أبو عبدالله أحمد بن أحمد بن عاصم الأنطاكى المتوفى سنة ٢٣٩ هـ يطلق عليه اسم "جاسوس القلب" حيث يدور كإلانه دوماً على المراقبة والمحاسبة وكبح جماح النفس . والأنطاكى يرى أن الصوفية هم "أهل الصدق" . ومجالستهم لذلك تكون بـ "الصدق". وعلم التصوف - كما يراه - هو "علم معاملات القلوب".

ويقول الأنطاكى: «إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الروح، وعلى نفس مسئولة فتعدها بالمحاسبة، وأستح من قبولك من نفسك دعاها الصدق، والحكيم من نظر بعين القلب، والقلوب تحتاج من أصحاب النفس الحية إلى دوام الرعاية، وإجمام القلوب يكون بقلّة المخالطة وترك الطلب، ورقتها تستجلب بدوام مجالسة أهل الذكر من أهل العقول، ونورها يتحصل بدوام الحزن، واستفتاح الحزن يكون بطول الفكر، والتماس الفكر يكون فى مواطن الخلوات.

وعندما نطالع ما تركه لنا الإنطاكي من رائع الشعر، وجميل النظم، نراه يلخص فيه حياته، ومجاهداته الروحية، وحقيقة تصوفه.

ولعل هذه القصيدة الرائعة التى يعلم بها مريدوه «زمان الشر»، خير دليل على ذلك.

وأنك مأخوذ بما كنت ساعيا	ألم ترى أن النفس يرديك شرها
وعلمًا يزيد العقل للصدر شافيا	فمن ذا يريد اليوم للنفس حكمة
سبيل هدى أو كنت للحق باغيا	هلم إلي الآن إن كنت طالبًا
فنه بالهام ومنه سماعيا	فعندى من الأبناء علم مجرب

* * *

أخبر أخبازاً تَقَادَمَ عهدُها
وكيف ثَمَا حتى استنم كماله
ومن بعدِ ذا عندي من العلم جوهرٌ
وعملاً غزيراً جالى الرين والصدى
وكيف بدا الإسلام إذ كان بادياً
وكيف ذوى إذ صار كالثوب باليا
يفيدك علماً إن وعيت كلاميا
عن القلب حتى يترك القلب صافيا

* * *

فأصبحتُ بالتوفيق للحق واضحاً
لأنى فى دهر تغرب وصفه
فأحوج ما كنا إلى وصف ديننا
عجائب من خير وشر كليهما
وذاك بالهام من الله ماضيا
فصار غريبا منوحش الأهل قاسيا
ووصف دلالات العقول زمانيا
فان كنت سماعا بدا للقلب واعيا
فقد ندب الإسلام أحمد ندبة
كما ندب الأموات ذو الشجو شاجيا

* * *

فأول ما أبدا بالحمد للذي
وصيرنى إذا شاء من نسل آدم
ولا شاء من إبليس صير مخرجى
ولكنه كان باللفظ سابقا
يراني للإسلام إذ كان باريا
ولم أك شيطانا من الجن عاتيا
فكنت مضلاً جاحداً الحق باغيا
وإذا لم أكن حياً على الأرض ماشيا

* * *

وصيرنى من بعد فى دين أحمد
وفهمنى نوراً وحكمة
فمن أجل ذا أرجو إذ كان غافراً
وعلمنى ما غاب عنه سؤاليا
فشكرى له فى الشاكرين موازيا
ومن أجل ذا قد صح منى رجائيا

ومن أجل ذا أرجوه إذ لم يكافئني ولكن بلطف منه كان ابتدائيا

* * *

فلا كنت ذا عقل لما قد رجوته
ولو كنت أرجوه لحسن ضيعة
فشكرى له إذا صيرت بالحق عالما
ومن بعد ذا وصفى لنفسي وطبعها
لقد كنتُ ذا خوف وشكرى محاذيا
شكرت فصيح الآن منى حيائيا
وللشر وصافا وللخير واصيا
ووصفى غيرى إذ عرفت ابتدائيا

* * *

فهذا من الأبناء وصف غرائب.
فكيف به إذا كان بالحق عالما
وذاك لأن الناس قد آثروا الهوى
فهذا زمان الشر فاحذر سبيله
فمن كان وصفى لكان بحاليا
فهيهات لا ينجيه إلا الفافيا
على الحق سر ثم جهراً علانيا
فإن سبيل الشر يردى المهاويا

* * *

البركة..



كيف ترقى رقبك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء
« البوصيري »

البوصيرى هو امام المادحين، وأحد أئمة الصوفية
المعدودين، الذين خلد ذكرهم، وخاصة بسبب افاضته،
وأجادته فى مدح الرسول الأعظم، وتقديمه للعالم
الاسلامى همزته الخالدة "البردة". وقد سمي الامام
الجليل أبو عبدا شرف الدين محمد بن سعيد المغربي
الأصل بالبوصيرى نسبة إلى "بوصير قوريدس" من قرى
بنى سويف حيث نشأ هناك وأمضى جزءا من عمره إلى
أن أقام بالاسكندرية آخر حياته حتى مات ودفن فى قبره
الذي شيد عليه مسجده المسمى باسمه.

وقد كان البوصيرى طيلة حياته التي امتدت ما يقرب من تسعين عاما (٦٠٨ -
٦٩٦هـ) أحد المدافعين عن الاسلام، وأعظم من ردوا علي من افتروا عليه، وخاصة ممن
أنكروا نبوة الرسول من غير المسلمين، حيث ناقشهم، وجادلهم وأقام الحجة عليهم،
ويظهر ذلك فى مدائحه النبوية

وتذكر بعض كتب الصوفية ومنها كتاب «طبقات الشاذلية الكبرى» أن البوصيرى،
كان من أصحاب الهمة العالية، كما تذكر أنه تعرف بأهل الصلاح والتقوى والعلم فى
الاسكندرية، وانقطع الي التصوف، وما اليه، ودرس آدابه وأسراره. وأنه سلك على يد
سيدي أبى العباس المرسى وأخذ عنه الحقائق والأسرار.

وسوف نقدم هنا همزية البوصيرى النورانية «البردة» التي لم تزل تمثل درة على جبين
الشعر العربى قاطبة، وأعظم ما كتب فى مدح الرسول الأعظم من قصيد.

وقد اشتهر البوصيرى بهذه القصيدة، وكان قد أصابه الفالج فقطع على نفسه عهدا
لئن شفاه الله أن ينظم قصيدة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام «خير البرية»، ولذلك
سميت قصيدته «الكواكب الدرية فى مدح خير البرية».

ويقال إن البوصيرى كان قد بدأ فى نظم القصيدة أثناء مرضه، فلما انتهى منها رأى

فى المنام رسول الله يمز يديه الكريمة على جسمه كله فيبرأ، ولذلك سميت القصيدة أيضاً باسم «البرأة»، وقد جازاه الرسول بأن خلّع عليه بردته، ولذا سميت كذلك بالبردة.

وقد ذاع صيت هذه القصيدة حتى بلغ الآفاق، وتبارى الناس فى كل زمان ومكان، حتى يومنا هذا فى ذكر مالها من كرامات، حتى صاروا ينشدونها فى مجالسهم، واختفالاتهم الدينية تشفعاً بالنبي، وطلباً لتفريج كربتهم، حتى سميت «قصيدة الشدائد».

ولهذه القصيدة الرائعة قصة ذكرها الشيخ الحملاوى فى كتابه «طراز البردة». وقد أراد بعض المحبين للبوصيرى أن يرفعوا من قدر البردة. فنسبوا إليها الأشياء وغالوا فيما نسبوه إلى البوصيرى من كرامات فى البردة، حقيقة أن بعض ما نسب إليها صحيح، ولكن بعضها كان مغالاً فيه ونقتصر هنا على الصحيح ونترك ما عداه، ما دامت صحته لم تثبت على الإطلاق.

فالصحيح ما ذكر من قصة الشيخ الحملاوى حين أصيب بخراج فى بطنه استعصى على الأطباء شفاؤه. فأرسل من يحج عنه علي حسابه الخاص وأمره أن يقرأ البردة أمام قبر الرسول متجهاً له بالشفاء.

وفى هذه الساعة التى قرئت فيه البردة أمام قبر الرسول انفجر الخراج من قلب الشيخ الحملاوى، وخرج الدم بكثرة حتى ملأ الحجرة ثم شفى بعدها.

ولما عاد الحاج من رحلته أخبره أنه قرأها الساعة كذا فى يوم كذا أى نفس الموعد الذى انفجر فيه الخراج وخرج الدم من قلب الشيخ الحملاوى.

ومن الصحيح أيضاً ما روى عن رجل أنه كان يقرأها ويواظب على قراءتها وأن بعض جيرانه كانوا يشمون رائحة جميلة تخرج من حجراته أثناء قراءته للبردة ونهب عليهم بين الحين والآخر.

وفيما يلى رائعة البوصيرى «البردة»، التى ما زالت حديث الناس فى كل مكان من العالم الإسلامى حتى يومنا هذا:

مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مَقْلَةٍ بِدَمٍ
وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِضْمٍ
وَمَا لِقَلْبِكَ أَنْ قُلْتَ اسْتَفِيقْ يَهُم
مَا بَيْنَ مَنْسَجَمٍ مِنْهُ وَمُضْطَرَمٍ
وَلَا أَرِقتَ لِذِكْرِ الْبَلَاءِ وَالْعَلَمِ
بِهِ عَلَيْكَ عُدُولُ الدَّمْعِ وَالسَّقَمِ
مِثْلَ الْبَهَارِ عَلَى خَدَيْكَ وَالْعَنَمِ
وَالْحُبِّ يَعْتَرِضُ اللَّذَاتِ بِالْأَلَمِ
مَنْى إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتُ كَمْ تَلَمَّ
عَنِ الْوُشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْحَسِمِ
إِنَّ الْمَحَبَّ عَنْ الْعُدَالِ فِي صَمَمِ
وَالشَّيْبُ أَبْعَدُ فِي نَصَحٍ عَنِ التُّهَمِ

أَمِنْ تَذَكُّرِ حَيْرَانٍ بِذَى سَلَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَقَاءِ كَاطِمَةٍ
فَمَا لَعَيْنَيْكَ أَنْ قُلْتَ أَكْفَفَا هَمَّتَا
أَيَحْسَبُ الصَّبُّ أَنَّ الْحُبَّ مُنْكَتَمٌ
لَوْ لَا الْهَوَى لَمْ تُرَقِّ دَمْعًا عَلَى طَلَلٍ
فَكَيْفَ تَنْكَرُ حُبًّا بَعْدَ مَا شَهِدْتَ
وَأَثَبْتَ الْوَجْدَ خَطًى عِبْرَةً وَضْنَى
نَعَمْ سَرَى طَيْفٌ مِنْ أَهْوَى فَأَرْقَنِي
بِالْإِثْمِ فِي الْهَوَى الْعَذْرَى مَعْدَرَةً
عَدَّتْكَ حَالِي لَا سَرِي بِمُسْتَتِرٍ
مَحْضَتْنِي النَّصَحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ
إِنِّي أَتَهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيْبِ فِي عَذَلِي

* * *

مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
ضَعِيفٍ أَلَمْ يَرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
كُنْتُ سَرًّا بَدَأَ لِي مِنْهُ بِالْكُتْمِ
كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجْمِ
إِنَّ الطَّعَامَ يُقْوَى شَهْوَةً النَّهْمِ
حُبُّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطَّمَهُ يَنْفُطَمِ

فَإِنَّ أَمَارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظْتُ
وَلَا أَعَدْتُ مِنَ الْفَعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَبَا أَوْقَرُهُ
مَنْ لَمْ يَرُدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا
فَلَا تَرُمُ بِالْمَعَاصِي كَسْرَ شَهْوَتِهَا
وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تَهْمَلَهُ شَبَّ عَلَى

فأصرف هواها وحاذر أن توليَه
وراعِهَا وهى فى الأعمال سائمةٌ
كم حسنت لذة للمرء قاتلةٌ
واخش الدسائس من جوعٍ ومن شبعٍ
واستفرغ الدمع من عينٍ قد امتلأت
وخالف النفس والشيطان وأعصهما
ولا تطع منهما خصمًا ولا حكما
أستغفر الله من قولٍ بلا عملٍ
أمرتك الخير لكن ما أثمرتُ به
ولا تزودتُ قبل الموتِ نافلةٌ

إِنَّ الهوى ما تولى يصم أو يصم
إِنَّ هـى استحلت المرعى فلا تُسم
من حيثُ لم يدِر أَنَّ السُّمَّ فى الدَّسم
فَرَّبَ مخمصةً شرًّا من التُّخم
من المحارم والزم حميةَ الندم
وان هما محضاك النصيح فأتهم
فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
لقد نسبت به نسلا لذى عقم
وما استقمتُ فما قولى لك استقم
ولم أصل سوى فرضٍ ولم أصم

* * *

ظلمتُ سنةً من أحيا الظلام إلى
وشد من سغبٍ أحشاءه وطوى
وراودته الجبالُ السُّمُّ من ذهبٍ
وأكدت زهدهً فيها ضرورته
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من
مُحمَّدُ سيد الكونين والشقلين
نبينا الأمر الناهى فلا أحدٌ
هو الحبيب الذى تُرجى شفاعته

أن اشتكت قدماهُ الضرَّ من ورم
تحت الحجارة كشحًا مُترَفَ الأدم
عن نفسه فأراها أيما شمم
إن الضرورة لا تعد وعلى العصم
لولاه لم تخرج الدنيا من العدم
من والفريقين من عربٍ ومن عجم
أبرئ فى قولٍ لا منه ولا نَعَم
لكلِّ هولٍ من الأهوالِ مقتنم

دعا إلى الله فالمستمسكون به
 فاق النبيين في خلق وفي خلق
 وكلهم من رسول الله ملتمس
 وواقفون لديه عند خداهم
 فهذا الذي تم معناه وصورته
 منزّه عن شريك في محاسنه
 دع ما ادعته النصاري في نبيهم
 وأنسب إلى ذاته ما شئت من شرف
 فإن فضل رسول الله ليس له
 لو ناسبت قدره آياته عظما
 لم يمتحنا بما تعيا العقول به
 أعياء الورى فهم معناه فليس يرى
 كالشمس تظهر للعينين من بُعد
 وكيف يدرك في الدنيا حقيقته
 فمبلغ العلم فيه أنه بشر
 وكل أي أتى الرسل الكرام بها
 فإنه شمس فضلهم كواكبها
 أكرم بخلق نبي زانه خلق
 كالزهر في ترف والبدر في شرف

مستمسكون بحبل غير منفصم
 ولم يدانوه في علم ولا كرم
 غرقا من البحر أو رشفا من الديم
 من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
 ثم أصفاه حبيبا باري النسم
 فجوهر الحسن فيه غير منقسم
 واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
 وأنسب إلى قدره ما شئت من عظم
 حد فيعرب عنه ناطق بقم
 أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم
 حرصا علينا فلم ترتب ولم نهم
 للقرب والبعد فيه غير منفحم
 صغيرة وتكل الطرف من أمم
 قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
 وأنه خير خلق الله كلهم
 وإنما إتصلت من نوره بهم
 يظهرن أنوراها للناس في الظلم
 بالحسن مشتمل بالبشر متسم
 والبحر في كرم والدهر في همم

كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ فِي جَلَالَتِهِ
كَأَنَّمَا اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ فِي صَدْفٍ
لَا طَيْبَ يَعْدِلُ تَرْبَا ضَمَّ أَعْظَمَهُ
فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمٍ
مِنْ مَعْدِنِي مَنْطِقٍ مِنْهُ وَمَبَسَمٍ
طُوبَى لِمَتَشَقِّ مِنْهُ وَلِمَتَشَمِّ

أَبَانَ مَوْلَدَهُ عَنْ طَيْبٍ عَصْرِهِ
يَوْمٌ تَفَرَّسَ فِيهِ الْفَرَسُ أَنَّهُمْ
وَبَاتَ إِيْوَانُ كَسْرَى وَهُوَ مَنْصَدَعٌ
وَالنَّارُ خَامِدَةٌ الْأَنْفَاسُ مِنْ أَسْفٍ
وَسَاءَ سَاوَةٌ أَنْ غَاضَتْ بِحَيْرَتِهَا
كَأَنَّ النَّارَ مَا بِالْمَاءِ مِنْ بَلَلٍ
وَالْجَنُّ تَهْتَفُ وَالْأَنْوَارُ سَاطِعَةٌ
عَمُّوا وَصَمُّوا فِإِعْلَانُ الْبَشَائِرِ لَمْ
مِنْ بَعْدٍ مَا أَخْبَرَ الْأَقْوَامَ كَاهِنُهُمْ
وَبَعْدَمَا عَايَنُوا فِي الْأَفْقِ مِنْ شَهَبٍ
حَتَّى غَدَا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ مَنَهَزُمٌ
كَأَنَّهُمْ هَرَبَا أَبْطَالُ أَبْرَهَةَ
نَبَذَا بِهِ بَعْدَ تَسْبِيحِ بَيْطَنَهُمَا
يَا طَيْبَ مَبْتَدِئٍ مِنْهُ وَمَخْتَمٍ
قَدْ أَنْذَرُوا بِحُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنَّعَمِ
كَشَمَلُ أَصْحَابِ كَسْرَى غَيْرَ مَلْتَمِ
عَلَيْهِ وَالنَّهْرُ سَاهَى الْعَيْنِ مِنْ سَدَمٍ
وَرُدَّ وَارْدَهَا بِالْغَيْظِ حِينَ ظَمَى
حَزْنًا وَبِالْمَاءِ مَا بِالنَّارِ مِنْ ضَرَمٍ
وَالْحَقُّ يَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى وَمِنْ كَلَمٍ
تَسْمَعُ وَيَارْقَعَةُ الْأَنْذَارِ لَمْ تُشَمِّ
بِأَنَّ دِينَهُمُ الْمَعْجُوجُ لَمْ يَقُمْ
مَنْقُضَةٌ وَفَقَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صَنَمٍ
مِنَ الشَّيَاطِينِ يَقْفُوا لِإِثْرٍ مِنْهُمْ
أَوْ عَسْكَرٍ بِالْحَصَى مِنْ رَاحَتِيهِ رُمِي
نَبَذَ الْمُسِيحُ مِنْ أَحْيَسَاءِ مُلْتَقَمٍ

جَاءَتْ لِدَعْوَتِهِ الْأَشْجَارُ سَاجِدَةً
تَمْشِي إِلَيْهِ عَلَى سَاقٍ بِلَا قَدَمٍ

كأَنَّمَا سَطَرْتُ سَطْرًا لَمَّا كَتَبْتُ
مِثْلُ الْغَمَامَةِ أَنَّى سَارَ سَائِرُهُ
أَقْسَمْتُ بِالْقَمَرِ الْمُنْشَقِ إِنْ لَهُ
وَمَا حَوَى الْغَارَ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ
فَالصَّدَقُ فِي الْغَارِ وَالصَّدِيقُ لَمْ يَرِمَا
ظَنُّوا الْحَمَامَ وَظَنُّوا الْعَنْكَبُوتَ عَلَى
وَقَايَةِ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مَضَاعِفِهِ
مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ
وَلَا التَّمَسْتُ عَنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ
لَا تُنْكِرِ الرَّحَى مِنْ رُؤْيَاهُ إِنْ لَّهُ
وَذَاكَ حِينَ بَلُوغٍ مِنْ نَبَاتِهِ
تَبَارَكَ اللَّهُ مَا وَحَى بِمَكْتَسَبِ
كَمْ أَبْرَأْتُ وَصَبَّكَ بِاللَّمْسِ رَاحَتِهِ
وَأَحْيَتِ السَّنَةَ الشَّهْبَاءَ دَعْوَتُهُ
بِعَارِضٍ جَادٍ أَوْ خِلْتُ الْبَطَاحَ بِهَا

فُروَعُهَا مِنْ بَدِيعِ الْخَطِّ بِاللَّقَمِ
تَقِيهِ حَرَّ وَطَيْسٍ لِلْهَجِيرِ حَمِي
مِنْ قَلْبِهِ نَسْبَةً مَبْرُورَةَ الْقَسَمِ
وَكُلَّ طَرَفٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَنْهُ عَمِي
وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بِالْغَارِ مِنْ أَرَمٍ
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ لَمْ تَنْسُجْ وَلَمْ تَحْمِ
مِنْ الدَّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأَطْمِ
إِلَّا وَنَلْتُ جَوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِّ
إِلَّا اسْتَلَمْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمِ
قَلْبًا إِذَا نَامَتِ الْعَيْنَانِ لَمْ يَنْمِ
فَلَيْسَ يَنْكُرُ فِيهِ حَالٌ مُحْتَلَمِ
وَلَانَبِيَّ عَلَى غُيُوبٍ مُتَّهَمِ
وَأَطْلَقْتُ أَرْبَا مِنْ رِبْقَةِ اللَّمَمِ
حَتَّى حَكَتْ غُرَّةً فِي الْأَعْصَرِ الدَّهْمِ
سَيِّبًا مِنَ الْيَمِّ أَوْ سَيْلًا مِنَ الْعَرَمِ

* * *

دَعْنِي وَوَصَفْنِي آيَاتُ لَهُ ظَهَرَتْ
فَالدَّرُ يَزْدَادُ حَسَنًا وَهُوَ مُنْتَظَمٌ
فَمَا تَطَاوَلَ أَمَالُ الْمَدِيحِ إِلَى
ظَهْوَرِ نَارِ الْقُرَى لِبَلَاءٍ عَلَى عَالَمٍ
وَلَيْسَ يَنْقُصُ قُدْرًا غَيْرَ مُنْتَظَمٍ
مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ

آياتُ حق من الرحمن محدثة
لم تقترن بزمانٍ وهى تخبرنا
دامت لدينا ففاقت كل معجزة
محكماتٍ فما تبقيَن من شَبِه
ما حُورِيتَ قط الا عادَ من حرب
ردت بلاغتها دعوى معارضها
لها معانٍ كموج البحرِ فى مددٍ
فما تعد ولا تحصى عجائبها
قُرَّت بها عين قاريها فقلت له
ان تتلَّها خيفةً من حر نار لظى
كأنها الحوضُ تُبيضُ الوجوهُ به
وكالصراطِ وكالميزانِ معدلةُ
لا تعجبُ لحسودٍ راح ينكرها
قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمدٍ

* * *

يا خير من يَمَمَ العافُونَ ساحتهُ
ومن هو الآيةُ الكبرى لمعتبرٍ
سريت من حرمٍ ليلا الي حرمٍ
وبت ترقى الى أن نلتَ منزلةُ
سعيًا وفوق منون الأيتى الرِّسْم
ومن هو النعمة العظمى لمغتئم
كما سرى البدرُ فى داجٍ من الظلم
من قابِ قوسين لم تدرك ولم ترم

والرسل تقديم مخدم على خديم
 في موكب كنت فيه صاحب العلم
 من الدُّنُو ولا مرقى لمستقيم
 نوديت بالرفع مثل المفرد العلم
 عن العيون وسرّ مكتّم
 وجُزّت كل مقام غير مزدحم
 وعز ادراك ما أوليت من نعم
 من العناية ركنا غير منهدم
 بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

وقدمتك جميع الأنبياء بها
 وأنت تخترق السبع الطباق بهم
 حتى إذا لم تدع شأواً لمستيق
 خفضت كل مقام بالاضافة اذ
 كيما تفوز بوصلي أي مستتر
 فحُزّت كل فخار غير مشترك
 وجل مقدار ما وليت من رتب
 بشرى لنا معشر الاسلام ان لنا
 لما دعا الله داعينا لطاعته

كناية أجفّت غفلاً من الغنم
 حتى حكوا بالقنا لحماً على وضم
 أشلاء شالت مع العقبان والرخم
 ما لم تكن من ليالى الأشهر الحرم
 بكل قرم الي لحم العدا قرم
 يرمى بموج من الأبطال مُلتطم
 يسطو بمستأصل للكفر مصطلم
 من بعد غربتها موصولة الرحم
 وخير بعل فلم تيمّم ولم تئم

راعت قلوب العدا أنباء بعثته
 ما زال يلقاها في كل معترك
 ودوا الفرار فكادوا يغبطون به
 تمضى الليالى ولا يدرون عدتها
 كأنما الدين ضيف حل ساحتهم
 يجرُّ بحر خميس فوق سابحة
 من كل متدب لله محتسب
 حتى غدت ملّة الاسلام وهى بهم
 مكفولة أبدا منهم بخير أب

ماذا رأي منهم في كل مصطدم
فصول حتف لهم أدهى من الوخم
من العدا كل مسود من اللمم
أقلامهم حرف جسم غير متعجم
والورد يمتاز بالسيمان من السلم
فتحسب الزهر في الأكمام كل كمي
من شدة الحزم لا من شدة الحزم
فما تفرق بين البهم والبهم
إن تلقه الأسد في آجامها تجم
به ولا من عدو غير منقصم
كالليث حل مع الأشبال في أجم
فيه وكم خصم البرهان من خصم
في الجاهلية والتأديب في اليتم

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم
وسل حنيئا وسل بدرا وسل أحدا
المصدرى البيض حمرأ بعدما وردت
والكاتبين بسمر الخط ما تركت
شاكي السلاح لهم سيما تميزهم
تهدى اليك رياح النصر نشرهم
كانهم في ظهور الخيل نبت ربا
طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا
ومن تكن برسول الله نصرته
ولن ترى من ولي غير متصير
أحل أمنه في حرز ملته
كم جدلت كلمات الله من جدل
كفاك بالعلم في الأمي معجزة

* * *

ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم
كأنني بهما هدى من النعم
حصلت الا على الأثام والندم
لم تشتتر الدين بالدنيا ولم تسم
يبن له الغبن في بيع وفي سلم

خدمته بمديح أستقيل به
اذ قلداني ما تخشى عواقبه
أطعت غي الصبا في الحالتين وما
فيا خسارة نفس في تجارتها
ومن بيع أجلا منه بعاجله

إِنَّ آتِ ذَنْبًا فَمَا عَهْدِي بِمَنْتَقِضِ
 فَإِنْ لِي ذِمَّةٌ مِنْهُ بِتَسْمِيَتِي
 إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي مَعَادِي أَخَذًا بِيَدِي
 حَاشَا أَنْ يَحْرَمَ الرَّاجِي مَكَارِمَهُ
 وَمَنْذُ أَلْزَمْتُ أَفْكَارِي مَدَائِحَهُ
 وَلَنْ يَفُوتَ الْغَنَى مِنْهُ يَدًا تَرَبَّتْ
 وَلَمْ أَرِدْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا الَّتِي اقْتَطِفْتُ

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مِنَ الْوُدِّ بِهِ
 وَلَنْ يَضِيقَ رَسُولُ اللَّهِ جَاهُكَ بِي
 فَإِنْ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضُرَّتْهَا
 يَا نَفْسَ لَا تَقْنَطِي مِنْ زَلَّةٍ عَظُمَتْ
 لَعَلِّي رَحْمَةً رَبِّي حِينَ يَقْسِمُهَا
 يَا رَبِّ وَاجْعَلْ رَجَائِي غَيْرَ مَنْعَكِ
 وَالطَّفْ بِعَبْدِكَ فِي الدَّارَيْنِ إِنْ لَهُ
 وَأَذَنْ لِسَحْبِ صَلَاةٍ مِنْكَ دَائِمَةٍ
 مَا رَنَّنَتْ عَذَابَاتِ الْبَآنِ رِيحُ صَبَا
 ثُمَّ الرِّضَا عَنْ أَبِيبَكْرٍ وَعَنْ عَمْرِ
 وَالْأَلِّ وَالصَّحْبِ ثُمَّ التَّابِعِينَ فَهُمْ

سِوَاكَ عِنْدَ حُلُولِ الْحَادِثِ الْعَمَمِ
 إِذَا الْكَرِيمُ تَحَلَّى بِاسْمِ مُتَتَّقِمِ
 وَمَنْ عَلُومُكَ عِلْمُ السُّلُوحِ وَالْقَلَمِ
 إِنْ الْكِبَائِرُ فِي الْغُفْرَانِ كَاللَّيْمِ
 تَأْتِي عَلَى حَسْبِ الْعَصِيَانِ فِي الْقِسْمِ
 لَدَيْكَ وَاجْعَلْ حَسَابِي غَيْرَ مَنْعَكِ
 صَبْرًا مَتَى تَدْعُهُ الْأَهْوَالُ يَنْهَزِمِ
 عَلَى النَّبِيِّ بِمَنْهَلٍ وَمُنْسَجِمِ
 وَأَطْرَبِ الْعَيْسَ حَادِي الْعَيْسِ بِالنَّعْمِ
 وَعَنْ عَلِيٍّ وَعَنْ عِثْمَانَ ذِي الْكَرَمِ
 أَهْلُ التَّقَى وَالنَّقْصَا وَالْحِلْمِ وَالْكَرَمِ

يا رب بالمصطفى بلغ مقاصدنا
واغفر الهى لكل المسلمين بما
بجاء من بيته فى طيبة حرم
وهذه بردة المختار قد خُتِمَتْ
أياتها قد أتت ستين مع مائة
واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم
يتلون فى المسجد الأقصى وفى الحرم
واسمُه قسَمٌ من أعظم القسم
والحمد لله فى بدء وفى ختم
فرج بها كربنا يا واسع الكرم

* * *

سَلَامِي..



شربنا حُمَيَّا الكأس في قدس حضرة
وأكرم بها في حضرة القدس من خمير
لنا عَصِرَتْ من كَرَمِ نور جمال مَنْ
سقانا وقد غنينا وحرنا فما ندرى
سكرنا بها من شمهها قبل شربها
نشأوى بريّاها إلى آخر الدهر
« اليافعي »

هذا شاعر صوفى آخر ، يفيض شعره رقة وعذوبة،
ويعجز المرء عن ادراك كل معانيه، وبلوغ جميع مقاصده،
ما لم يحط بشخصية صاحبه المتفردة، ومكانته
الرفيعة فى عوالم الصوفية، والحب الالهى. شاعرنا هنا
هو عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعى، نسبته الى
”يافع“ من حمير مولده ونشأته فى عدن بأرض اليمن.

كان اليافعى ذا علم غزير وإطلاع كبير، ومعرفة واسعة، وعلوم نافعة. بدأ حياته مهتما
بدراسة الفقه، وعلوم القرآن، ووجد فى نفسه مع الأيام ميلا الى التصوف.

وعندما وجد اليافعى فى نفسه رغبة فى الاستزادة من مناهل العلم، على يد أعلام
عصره، ارتحل الي القدس، ثم دمشق ثم الحجاز لينتهي في مصر، حيث ذاع صيته،
وانتشرت قصائده وترانيمه الصوفية، وأضحى علما من أعلام التصوف.

ولليافعى مؤلفات كثيرة فى التصوف وأعلامه تهافت الناس عليها كثيرا، على مدى
سبعين عاما وهى عمره كله (٦٩٨ - ٧٦٨م)، ومن أشهر هذه المؤلفات: «نشر المحاسن
الغالية فى فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية».

وفى هذا المؤلف يشرح اليافعى بأسلوب أدبى جميل الأحوال والمقامات، كما يضمه
ما نظمه من أشعار وترانيم صوفية.

ومن أهم مؤلفات اليافعى أيضاً «روض الرياحين فى مناقب الصالحين»، الذى يتناول
سير خمسمائة من أعلام الصوفية الكبار، أخبارهم ، مناقبهم، كراماتهم، شمائلهم ، وكل
ما يرتبط بحياتهم وأعمالهم.

أما شعر اليافعى فيمكن أن ننظر إليه كمنظومات صوفية تمثل فنا وسطا، فلا هي
بالشعر المطبوع، ولا هي بالنظم المتكلف، وقصائده تفيض بصدق العاطفة ، وشفافية
الروح، ويغلب عليها الرمز.

وانظر اليه يقول فى قصيدة بعنوان «الباب اللب فى مدح شهيد الحب» يتوقف عند أروع المعانى الصوفية «المحبة» ويدعو إلى الموت عشقا:

قتيلُ العوى فى مذهب الحب والفقر	بلا عوضٍ حاشاه من طلب الأجرِ
سوى رؤية المحبوب فى ساعة القا	إذا ما قتل السيف عوض فى الحشرِ
فشتان ما بين المقامين فى العلى	وبين شهيد الحب والسيف فى القدرِ
فما طالبٌ مولى له طال شوقه	وفى حبه قدمات خالٍ عن الصبرِ
كطالب مطعموم الجنان وشربها	وملبوسها والخيل والخور والقصرِ
كفى شرقاً موت المحب صبابةً	بمولى، وفضلاً جلّ قدراً عن الحصرِ
قتيل جمالٍ قد ودّوه برؤية	ووصلٍ وقربٍ والتنادم والسرّ

وتكمن أهمية شعر اليافعى فى أنه ينشر الثقافة الصوفية وأعلامها. ولليافعى أشعار كثيرة تفيض رقة وعذوبة، الا اننا سوف نورد هنا رائعته الذي اخترنا لها اسم «سلمى»، واسمها الأصيل «الراح المختوم والدر المنظوم فى مدح المشايخ أصحاب السر المكتوم، وذم الطاعنين فيهم من جميع الخصوم»:

سلا عن حمى سلمى، وعن أهله الغرّ	عسى خبرٌ يلقاكما، طيّب الذكرِ
يجىء به من نحوها عذبٌ منطق	يفوح به من ريحها طيّبُ النشرِ
يُخبر عن سلمى وعن ذلك الحمى	وقول لسان الحال فى نظمه الدرّى
رعى الله عهداً مرّع جيرة الحمى	هنا فى رياضٍ زاهراتٍ به زُهرِ
سقتنا بها سلمى من الراح عندما	بدتْ فأضاء الكون من جانب الخدرِ

* * *

أما طت حجاباً عن بهاء جمالها
نرومُ التسلّي عن هواها ببُغْدنا
خليلى ما سلمى ونجدُ وما الحمى
شربنا حمياً الكأس فى قدسِ حضرة
لنا عُصرت من كرمِ نورِ جمال من

سكرنا بها من شمسها قبل شربها
أو السكر ذا من رؤية الكأس، أو أنت
تجلى بأوصاف الجمال فشاهدت
فيا ليلةً فيها السعاداتُ والمنى
فلما شربنا الراحَ فى ساحة الرضا
رسول عنايات برسم ولاية
وضاءت لنا أنوار غيب وشوهدت
وحلت بوادى طور قلب معارف
وكمُ حكم تجلى ملاح، كأنها
وكم يدفع الله البلايا بسادة

فمن لم بذأ يؤمن، فقولوا له إذا
تجلى فُضولاً فى فضائل سادة
مقاماتُ أحباب ترى الشهب دونها
تضىء الدياجى من بهاء جمالها
وما تلك من أشباه عُشك، فادِّح

كائسي وخمري..

أحبُّكَ حُبِّين: حبُّ الهوى
وحبُّنا لأنك أهلٌ لذاكنا
فأما الذي هو حُبُّ الهوى
فشغلي بذكركِ عن سواكنا
« رابعة العدوية »

نعم هي أشهر النساء اللاتي عرفن بالزهد، بل
التصوف، فعزفن عن الحياة الدنيا، وتقشفن، وتنسكن،
وتعبدن الله، إنها ام الخير رابعة القيسية، والتي تغلب
عليها الاشتهار برابعة العدوية.. ومن نادر كلامها في
النسك والزهد، قولها وقد قيل لها: لو كلمنا رجال
عشيرتك فاشتروا لك خادماً تكفيك مؤونة بيتك؟
فقلت وهو من بليغ القول : والله إنى لأستحي أن
أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسألها من لا
يملكها؟.

وتعبراً عن بالغ خشيتها من الذنب، قولها لمن قال لها: هل عملت عملاً قط ترين أنه
يقبل منك؟ فقلت: ان كان شيء فخوفي من أن يرد علي.

وقال رجل لرابعة: انى قد اكثرث من الذنوب والمعاصي، فهل يتوب على أن تبت؟
قالت وهو من نادر القول: لا ، بل لو تاب عليك لتبت.

ويروون عن العدوية أنها وهى طفلة خرجت هى واخواتها من شدة الجوع وقت أن
نزل القحط بالبصرة فوجدها رجل باعها بستة دراهم، وكانت تقرض الشعر وتغنيه
وتعزف على الناي، ولها مزاج فنى رقيق وميل طبعى الى الحزن ، ولعلها لذلك كانت
تحب الناي عن العود.

وشعر رابعة العدوية فيه لغة النساء، وربما استعملها سيدها للغناء فى مجالسه وكان
ذلك يسخطها عليه بسبب اتجاهاتها الدينية القوية حتى أنها شرعت فى الهرب وناجت
ربها قائلة: «الهى ! اني غريبة ويشيمة وأرسف فى قيود الرق، ولكن همى الكبير هو أن
أعرف أراض أنت عنى أم غير راض؟» أى أنها ربما كانت تخشى أن تبوء بغضب الله
بسبب ما كان يجبرها عليه سيدها.

وقد زادها ذلك من التهافت على العبادة والابتهاال الي الله أن يقيها من عثرتها، وقد تسمع عليها سيدها فى ليلة فوجدها تقول وهى ساجدة: «الهى ! أنت تعلم أن قلبى يتمنى طاعتك، ونور عينى فى خدمة عتبتك، ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظة عن خدمتك، لكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبدتك!»، فلما كان الصباح طلبها سيدها وأعتقها ، فكان ذلك مدعاة أكثر للتوجه للشكر لربها فانصرفت بكليتها اليه وقد تحررت من رقها.

وكانت اذا انتهت من صلاة العشاء تصعد الي سطح دارها بعد أن تشد عليها درعها وخمارها وتدعو «الهى أنارت النجوم، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك»، ثم تقبل على الصلاة فاذا كان السحر وطلع الفجر قالت: «الهى هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنا، أم رددتها على فأعزى؟ فوعزتى هذا دأبى ما أحييتنى وأعتنى!». .

وقد أطلق على رابعة العدوية التى توفيت فى البصرة سنة ١٣٥ هـ اسم «شاعرة المحبة الالهية» ، ويميل البعض الى النظر اليها كأول من تكلم من الصوفيين فى المحبة الالهية ، وأدخل هذا المعنى فى التصوف الاسلامي.

ومن خلال أشعارها فى المحبة الالهية ظهرت دعوة رابعة العدوية واضحة جليلة، للتقرب الي الله عن طريق حبه.

وها هي ، رائعة رابعة العدوية «كأسى وخمرى» -فى رأينا طبعا- وبعدها «أحبك حين» أشهر أشعارها وبعدها بعض مقطوعاتها التى وصلتنا وهى قليلة، لكنها شديدة الحلاوة، شديدة العذوبة، ذات إيقاع خلاب، وموسيقى ساحرة:

كأسى وخمرى والنديم ثلاثة وأنا المشوقة فى المحبة رابعة
كأسى المسرة والنعيم يديرها ساقى المدام على المدى متتابعة

فإذا نظرت فلا أرى إلاَّ له وإذا حضرت فلا أرى إلا معه
يا عاذلي إني أحبُّ جماله تالله ما أذني لعذلك سامعة

* * *

أحبك حبين: حب الهوى وحباً لأنك أهلٌ لذاك
فأما الذي هو حبُّ الهوى فشغلي بذكرك عمن سواك
وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفك للحُجب حتى أراك
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاك

* * *

راحتي يا اخوتي في خلوتي وحببي دائماً في حضرتي
لم أجذلي عن هواه عوضاً وهواه في البرايا مسحتي
حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابي إليه قبلي
إن متُ وجداً ومائتم رضا وأعنائى في الورى وأشقوتي
يا طبيب القلب يا كل المنى جُذُ بوصل منك يشفى مهجتي
يا سرورى وحياتي دائماً نشأتى منك وإيضاً نشوتي
قد هجرتُ الخلقَ جمعاً أرنجي منك وصلاً فهو أقصى منيتي

* * *

يا سرورى ومنيتى وعماد وأنيسى وعُدتى ومُرادى
أنت روح الفؤاد، أنت رجائي أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتى وأنس ما تشئت فى فسيح البلاد

كم بدت منةً وكم لك عندي من عطاء ونعممةٍ وأيادي
حبك الآن بغيتي ونعمي وجلاء لعين قلبي الصادي
ليس لي عنك ما حبيتُ براح أنت مني مُمكنٌ في السواد
أن تكن راضياً عليَّ فإني يا مني القلب قد باد إسمادي

* * *

ته دلالة..

نصحتك علما بالهوى.. والذي أرى
مخالفتي.. فاختر لنفسك ما يحلو
فإن شئت أن تحيا سعيدا فمُت بهِ
شهيدا وإلا فالغرام له أهل
« ابن الفارض »

لا يذكر التصوف الا ويأتى اسمه فى أول الذكر ولا يأتى الحديث عن أشعار الحب الالهى، والترانيم الصوفية، الا وتراه فى المقدمة. إنه ابن الفارض فى العشق سلطان العاشقين - كما هو عند الصوفية - وفى الحب إمام المحبين، وفى الهوى قدوة المقتدين، وفى النظم أشعر المتصوفين، ويراه كثيرون على أنه الصوفي المصري الأول بلا منازع، وزعيم شعراء الصوفية من العرب.

ولقد اختلفت فى ابن الفارض الآراء والأقوال، فبعضهم ينسبه إلى الكفر والقول بالاتحادية، وبعضهم يصفه بالقبطانية ويسرف فى الثناء عليه، فمن يكون ابن الفارض؟ هو شرف الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي الحموي المصري، المعروف بابن الفارض، لأن أباه كان يعمل فارضا، أي يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام، فغلب عليه لقب «الفارض» وعرف ولده بابن الفارض.

وابن الفارض مصري المولد والنشأة والوطن، وكان عميق الحب لمصر، ينوّه بها ويتغنى فيها، ولقد عاش فى عصر الأيوبيين (٥٥٦ - ٦٣٢هـ) وفيه شاع مذهب أهل السنة، وصار فيه للصوفية مكانة، فهو عصر يسوده المذهب السني والاتجاه الصوفي والنزعة الشعرية، ولقد تعاونت علي تكوين شخصية ابن الفارض بيئات ثلاث: الشام، وهي أصله ومنبت أسرته، والشام تغلب علي أهله رقة الطبع، ومصر مكان مولده ونشأته، ولمصر مكانتها، والحجاز وفيه أقام ابن الفارض خمسة عشر عاما، وللحجاز نفحاته.

ولقد نشأ ابن الفارض عفيفا متصوفا، زاهدا متعبدا، ورعا متدينا، درس الحديث وفقه الشافعية، وكان يحب الخلوة والعزلة وكثيرا ما كان يؤوي إلي ناحية في جبل المقطم، تسمى «وادي المستضعفين»، أو في أحد المساجد المهجورة في القرافة.

وحينما سلك ابن الفارض طريق التصوف بدأ بسلوك طريق التصفية والتنقية

والتجريد وقد جمع ابن الفارض بين ثلاث: الشاعرية ذات الحس الدقيق والشعور الرقيق، والصوفية ذات الذوق، والرياضة والمجاهدة، والمحبة ذات العواطف الشريفة والانفعالات العفيفة التي تستبد بها النزعة الروحية التي يصعب علينا تحديدها أو تقييدها.

ولم يخلف لنا ابن الفارض آثارا مكتوبة غير ديوانه الشعري وهذا الديوان ينظر إليه أهل الأدب علي أنه كغيره من دواوين الشعر الغزلي البشري، وينظر إليه أهل التصوف علي أنه ديوان شعر صوفي نظمه صاحبه في الحب الالهي.

ومن الواضح الجلي أن شعر ابن الفارض تسيطر عليه عاطفة الحب، سواء أكان حبا حسيا أو حبا روحيا، وهناك من الباحثين الأدباء من يقرر أن حب ابن الفارض كان في عهد شبابه حبا حسيا، فقد كان في شبابه مضرب المثل في نضارة الجسم والشكل وبهاء المنظر، ولكنه في عهد الكهولة إنتقل إلي الحب الروحي الالهي، ومما يقوي هذا الاستنباط أن بعض الغزل في شعر ابن الفارض يصعب تأويله علي أنه غزل روحي. ومن أمثلة ذلك قوله:

ولما تلاقينا عشاء، وضمنا	سواء سبيلي دارها وخيامي
وملنا كذا شيئا عن الحي، حيث لا	رقيب، ولا واشٍ بزورٍ كلام
فرشتُ لها خدي وطاءً علي الثري	فقال: لك البشر بلثمٍ لثامي
فما سمحتُ نفسي بذلك غيرةً	على صونها مني لعزٍ مرامي
وبتنا كما شاء إقتراحي على المنى	أري الملكَ ملكي والزمانَ غلامي

وسوف نقدم هنا - عزيزي القارئ - رائعة ابن الفارض «ته دلالا»، التي تمثل درة علي جبين الشعر:

ته دلالا فأنت أهلٌ لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاكَا

ولك الأمرُ ما أنت قاضٍ
وتلافي ان كان فيه ائتلافي
وبما شئت في هواك اختبرني
فعلى كلِّ حالةٍ أنت منيَّ
فعلى الجمالُ قد ولأكا
بك، عجلَّ به جُعلتُ فداكا
فاختباري ما كان فيه رضاكا
بي أولى، وإذ لم أكن لولاكا

وكفاني عزاً بحبك ذلِّي
وإذا ما إليك بالوصل عزَّتْ
فاتهامي بالحب حسبي، وإني
لك في لحيِّ هالكٍ بك حيُّ
عبد رُقٍ مارقٌ يوماً لعنق
وخضوعي، ولست من أكفاكا
نسبتي عزَّةً وصحَّ ولاكا
بين قومي أعدُّ من قتلاكا
في سبيل الهوي استلذَّ الهلاكا
لو تخلَّيت عنه ما خلاكا

بجمالٍ حجبتهُ، بجلالٍ
وإذا ما أمنُ الرجا منه أدنا
فبإقدامٍ رغبةٍ حين يغشا
ذات قلب فسأذن له يتمنا
أومر الغمض أن يمرُّ بجفني
هَام وإستمذَّب العذابَ هناكا
لَك، فعنه خوفُ الحجي أقصاكا
لَك، باحجامٍ رهبةٍ يخشاكا
لَك، وفيه بقيسةٌ لرجاكا
فكأنني به مطيعاً عصاكا

فعمسى في المنام يعرضُ لي الوهـم
م، فيوحي سرّاً إلي سُراكا

وإذا لم تُنعش بروح التـمـني
وَحَمَت سُنَّةُ الهوي سَنَةَ الغَمِّ
أَبْقِ لِي مَقْلَةً لَعَلِّي يَوْمًا
قَبْلَ مَوْتِي أُرِي بِهَا مِنْ رَأَا
أَيْنَ مَنِي مَارَمْتُ هَيْهَاتَ، بَلْ أَيْدِ
رَمَقِي، وَاقْتَضِي فَنَائِي بِقَاكَ
ضَ جُفُونِي، وَحَرَّمْتُ لُقْيَاكَ
مِنْ لَعِينِي بِالْجَفْنِ لَثْمُ ثَرَاكَ

* * *

فَبشِيرِي لَوْ جَاءَ مِنْكَ بِعَظْفٍ
قَدْ كَفَى مَا أُرِي دَمًا مِنْ جُفُونٍ
فَأَجْرُ مَنْ قَلَكَ فَيْكَ مُعْنِيَّ
هَبْكَ أَنْ اللَّاحِى نَهَاهُ بِجَهْلٍ
وَالِي عِشْقِكَ الْجَمَالَ دَعَاهُ
وَوَجْوِي فِي قَبْضَتِي، قَلْتَ هَاكَ
بِكَ قَرْحِي، فَهَلْ جَرَى مَا كَفَاكَ
قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ الْهَوَى يَهْوَاكَ
عَنْكَ قُلْ لِي عَنْ وَصْلِهِ مِنْ نَهَاكَ
فِيَالِي هَجْرِهِ تَرِي مِنْ دَعَاكَ

* * *

أَتُرَى مَنْ أَفْتَاكَ بِالْصَدِّ عَنِّي
بَانْكَسَارِي بِذَلَّتِي بِخَضُوعِي
لَا تَكْلَنِي إِلَى قَوَى جَلْدِ خَا
كَتَّ تَجَفُّو وَكَانَ لِي بَعْضُ صَبْرِ
كَمْ صَدُودًا عَسَاكَ تَرْحَمُ شَكْوَا
شَنَّعَ الرُّجْفُونَ عَنْكَ بِهَجْرِي
مَا بِأَحْشَانِهِمْ عَشَّقْتُ فَاَسْلُو
وَلَغِيرِي بِالْوَدِّ مَنْ أَفْتَاكَ
بِافْتِقَارِي بِفَاقَتِي بِغَنَاكَ
نَ، فَاَنِي أَصْبَحْتُ مِنْ ضَعْفَاكَ
أَحْسَنَ اللَّهِ فِي اصْطِبَارِي عَزَاكَ
يَ، وَلَوْ بِاسْتِمَاعِ قَوْلِي عَسَاكَ
وَأَشَاعُوا أَنِّي سَلَوْتُ هَوَاكَ
عَنْكَ يَوْمًا، دَعِ يَهْجُرُوا، حَاشَاكَ

كيف أسلو ومقلتي كُمالا
حَ بريقُ تَلَفَّتْ لِلْقَاكا
ان تَنَسَمْتُ تَحْتَ ضَوْءِ لُثَامٍ
أَوْ تَنَسَمْتُ الرِّيحَ مِنْ أَثْنَاكا
طَبْتُ نَفْسًا إِذْ لَاحَ صُبْحُ ثَنَايا
كَ لَعِينِي، وَفَاحَ طَيْبُ شَذَاكا

* * *

كل من في حِمَاكَ يَهْوَاكَ، لَكِنْ
أَنَا وَحْدِي بِكُلِّ مَنْ فِي حِمَاكَ
فِيكَ مَعْنَى حَلَاكَ فِي عَيْنِ عَقْلِي
وَبِهِ نَاطِرِي مُعْنَى حِلَاكَ
فُتَّتْ أَهْلُ الْجَمَالِ حُسْنًا وَحُسْنِي
فَبِهِمْ فَاقَهُ إِلَى مَعْنَاكَ
يُحْشِرُ الْعَاشِقُونَ تَحْتَ لَوَائِي
وَجَمِيعُ الْمَلَاحِ تَحْتَ لَوَاكَ
مَا ثَنَانِي عَنْكَ الضَّنَى فَبِمَاذَا
يَا مَلِيحَ الدَّلَالِ عَنِّي ثَنَاكَ

* * *

لَكَ قَرَبٌ بِبَعْدِكَ عَنِّي
وَحَنُو وَجَدْتُهُ فِي جَفَاكَ
عَلِمَ الشُّوقُ مَقْلَتِي سَهْرَ اللَّيْلِ
لِي، فَصَارَتْ مِنْ غَيْرِ نَوْمٍ تَرَاكَ
حَبَّذَا لَيْلَةً بِهَا صِدْتُ أُسْرًا
لَكَ، وَكَانَ السُّهَادُ لِي أَشْرَاكَ
نَابَ بَدْرُ التَّمَامِ طَيْفَ مُحْيَا
لَكَ لَطَرْفِي، بِيَقْظَتِي إِذْ حَكَكَ
فَتَرَاءَيْتَ فِي سِوَاكَ لَعِينٍ
بِكَ فَرَّتْ وَمَا رَأَيْتَ سِوَاكَ

* * *

وَكَيْذَاكَ الْخَلِيلُ قَلْبَ قَسْبِلِي
طَرَفُهُ حِينَ رَاقِبَ الْأَفْلاكَ
فَالِدِ يَا جِي لَنَا بِكَ الْآنَ غُرٌّ
حَيْثُ أَهْدَيْتَ لِي هُدًى مِنْ ثَنَاكَ

ومتى غبتَ ظاهراً عن عياني
ألفه نحو باطني ألفاك
أهل بدرٍ ركبٌ سرّيتَ بليلٍ
فيه بل سار في نهارٍ ضياك
واقْتباسُ الأنوار من ظاهري غيْنُ
سر عَجيبٍ وباطني مأواك

* * *

يغْبَقُ المسكُ حيثما ذُكِرَ اسْمِي
منذ ناديتني أَقْبَلُ فاك
ويضوع العبيرُ في كلِّ نادٍ
وهو ذكرٌ معبرٌ عن شذاك
قال لي حسنُ كلِّ شيءٍ تجلّى
بي تملّي فقلتُ قصدي وراك
لي حبيبٌ أراك فيه معنى
غُرٍّ غيري وفيه معنى أراك
ان تولى على النفوس تولى
أو تجلّي يستعبدُ النساك
فيه عوّضتُ هُداى ضلّالاً
ورشادى غيًّا وستري انهنّاك
وحدّ القلبُ حبه فالتفاني
لك شِرْكٌ ولا أرى الاشراكا
يا أخا العدلِ في من الحسن مثلي
هام وجداً به عِدمتُ أخاك
لو رأيت الذي سبباني فيه
من جمالٍ ولن تراه سباك
ومتى لاح لي اغتفرتُ سُهادي
ولعيني قلتُ هذا بذّاك

* * *

الألسنة والأسماع، هو الذي أغرى كثيرين بالنظر إليه متابعة واستلهاما، يقول واحد منهم
يعزف على وتر رابعة:

لما علمت بأن قلب فارغ من سواك، ملأته بهواكا

وملأت كلي منك، حتى لم أدع
فالقلب فيه هيامه وغرامه
والطرف حيث أجيله متلفنا
والسمع لا يصفى إلى متكلم
بل انه ينظر من قريب أيضا إلى أبيات ابن الفارض المشهورة:

لك قرب مني، يمدك عني
علم الشوق مقتلتي سهر الليل
حبذا ليلة بها صدت أسراك
بات بدر التمام طيف محياك
فتراءيت في سواك لعين
بك قررت وما رأيت سواكا
وهي أبيات تدور حول فكرة استحضر صورة المحبوب وتفنن هؤلاء الشعراء
العشاق في الإتيان بالصور المبتكرة والمعاني الطريفة، وهو مجال كان لابن الفارض فضل
السبق فيه، من خلال قدرته الفذة على إصطياد عشرات الصور التي يتمثل فيها جمال
صورة المحبوب، وتتجلى روعتها وتفردا وتمايزها، أليس هو القائل:

تراه ان غاب عني كل حارجة
في نغمة العود والناي الرخيم، اذا
وفي مسارح غزلان الخمائل في
وفي مساقط أنداء الغمام علي
وفي مساحب أذيال النسيم إذا
وفي الثشامي ثغر الكأس مرتشفًا
لم أدر ما غربة الأوطان وهو معي
في كل معنى لطيف رائق بهيج
تألفا بين الحان من الهزج
برد الأصائل والاصباح في البلج
بساط نور من الأزهار متسج
أهدى إلي سحيرا أطيّب الأرج
ريق المدامة في مستنزه فرج
وخاطري أين كنا غير منزعج

* * *

ليلى..



قد سُقْتُ فَنِي الْهَوَىٰ إِلَيْكَ مَهْجَتِي
وَالدَّمُ دَمْعٌ لِّغَسْرَامِي شَبَاهَدُ
وَلَمْ أَقْصِرْ فَيْكَ عَنْ حِفْظِ الْهَوَى
وَالْحَرُّ مَنْ يَحْفَظُ مَنْ يَعَاهَدُ
« نَجْمُ الدِّينِ »

قد لا يعرف الكثيرون هذا الشاعر الصوفي الكبير الذي لم يعطه المؤرخون ما يستحقه من مكانة، كأحد أعلام الأدب والتصوف في القرن السابع الهجري. والشيخ محمد ابن سوار بن اسرائيل بن الخضر بن الحسن بن علي بن الحسين الشيباني المعروف باسم نجم الدين ابن اسرائيل (١٠٣-١٧٧هـ) هو أحد أولئك الأعلام الذين جمعوا بين الشعر والاتجاه الصوفي.

وقد بدأ نجم الدين شاعرا غزليا حسيا أكثر منه روحيا، كما يمكن القول ان شعره كان خليعا في البداية، ثم سرعان ما جاءت لحظة التحول الروحي في حياته، فدخل عالم التصوف، وأخذ قواعد الطريق على يد الشيخ علي الحريري ثم الشيخ شهاب الدين السهروردي، صاحب كتاب «عوارف المعارف».

ولعل هذا هو ما أحدث تغييرا جذريا في توجهات نجم الدين الشعرية، ولعل الآيات التالية خير مثال على ذلك:

يا مَنْ يُشِيرُ إِلَيْهِمُ المتكلم	وإليهمُ يتوجَّه المتظلمُ
وعليهمُ يحلو التأسفُ والأسى	وتلذُّ لوعات الغرامِ المفرمُ
هذا الوجود وان تعدد ظاهراً	وحياتكم بما فيه إلا أنتمُ
وشفقتُ كلِّي بكم وجوارحي	وجوانحي أبدأ تحنُّ إليكمُ

واذا نظرتُ فليستُ أنظر غيركم	واذا سمعتُ فمنكمُ أو عنكمُ
واذا نظقتُ ففى صفات جمالكم	واذا سألتُ للكائنات فمنكمُ
واذا سكرتُ فمن مُدامة حبكم	وبذكركم فى سكرتى أترنمُ
واذا نظمتُ تغزلاً فى صورة	فلأجل حُسنكمُ المحجبِ أنظمُ

أنتم حقيقة كلُّ موجود بدا	ووجود هذى الكائنات توهمُ
---------------------------	--------------------------

أنا فى وجودكم غريبٌ بائنٌ وغريبكم ما باله لا يرحمُ
 ويتميز شعر نجم الدين بصدق معانيه، وروعة مخيلته، وسمو مقاصده، وغناء
 مفاهيمه الصوفية. وسوف نورد هنا غزلية نجم الدين الصوفية الرقيقة «ليلى» التى يرمز
 فيها للجمال الالهى ليلى، ويقول مؤثرا الموت على الهجر:

هل عهد ليلى بالكثيف عائدٌ أم طيفها لسقم جسمى عائدٌ
 حوار حار العقل فى صفاتها لها الجمالُ عاشقٌ وحاسدٌ
 فكل عـضـو بدرٌ طالعٌ وكل عطفٍ فيه غصنٌ مائدٌ
 فعطفنا وحسنٌ صبرى ناقصٌ وحسنها وفرطٌ وجدى زائدٌ

* * *

يا كعبةَ الحسِنِ التى أحجَّها فؤادُ مُضناكَ عليكَ وافدٌ
 قد سَقَتْ فى الهوى اليك مبهجتي والدمُ دمع لغرامى شاهدٌ
 وطفْتُ فى مـغـنـاك حتى مَلَنَى من أرضك الرسومُ والمعاهدُ
 ولم أقصِّر فيك عن حفظ الهوى والحُرُّ من يحفظ مَنْ يعاهدُ

* * *

وربما يُجمَعُ جمَعُ شملنا بكم وتصفو عندك المواردُ
 وعَلَّنا نقضى مُنانا بمنى وتنقضى من وصلنا المواعدُ

* * *

أو لا بـمـونى فيكمُ شهادَةٌ علىَ فيهما بالرضى شواهدُ
 إلى كم، رعاكَ الله، تنأى وأقربُ وأرضى بما تجنى على وتغضبُ

فلا أنت مشك ان شكوت فيشتفي
تكلفت لى ذاك الوداد فلم يدم
ومن يتكلف ضد ما هو طبعه
فؤادى وان أعتب فما أنت مُعتَبُ
وكلُّ وِدادٍ بالتكلفِ يصعبُ
تَعُدُّ نفسه للطبع والطبعُ أغلبُ

* * *

يقولون هند لا تدوم وزينبُ
تطلبْتُ ودًا لا يكون لعله
وحاولتُ مَنْ يوفى بعهدٍ فلم أجِدُ
تَلَطَّفُ فإن اللطفَ منك سَجِينَةٌ
على العهد، كُلُّ الناسِ هندُ وزينبُ
فأَعْوَزَنِي وجدانُ منّا أَتطلبُ
كَأَنَّ الذى حاولتُ عِناقَ مُغربُ
تَعَطَّفُ فإن العطفَ منك مجرَّبُ

* * *

وان كان لأبدًا من الهجر فاتتد
سأرحلُ عنك اليوم لا متلفَتُ
وأما وِدادى فهو باقٍ وإن من
لعل رحيلى عن جنابك يُقَرِّبُ
بوجهى كَأَنى خائفٌ مُترَقِّبُ
بقِقاء وِدادى أننى أتعَتَّبُ

لن أفعل كسائر الناس!..

لا تلمنى يا سيدى إذا احتسيت الخمرَ والشرابِ
وإذا قضيتُ فى الخمرِ والعشقِ أيامَ الشيبِ والشبابِ
« ابن أبى الخير »

أبو سعيد فضل الله المعروف باسم ابن أبي الخير هو أحد كبار اعلام الصوفية الذين عرفتهم بلاد فارس، وهو صاحب المؤلف المعروف "المقامات فى التوحيد"، التى صاغها شعرا بالفارسية، على هيئة رباعيات.

ويقال ان ابن أبى الخير الذى ولد بخراسان وعاش ما بين (٣٥٧ - ٤٤١ هـ) أنه أول من ابتدع الشعر الصوفى ، وأول من استخدم الرمزية والقصص فيه، وأول من طوع الرباعيات لكى تحتوى الأفكار الصوفية، ثم سار على دربه باقى من عاصروا، أو تلووه من شعراء الفرس.

وقد درس ابن أبى الخير الفقه الشافعي، وأخذ التصوف عن أبيه، وكانت حياته كلها زهد وتصوف، وتقشف، وكان يصلى بالليل والنهار ويصوم بالأيام، حتى مات عن ثلاثة وثمانين عاماً.

ويقال أنه لما أشرف ابن أبى الخير على الموت طلب أن يكتبوا على قبره هذين البيتين:

سألتك بل أوصيك ان مت فاكتبى على لوح قبرى كان هذا ميمما
لعل شجيا عارفا ستن الهوى يمر على قبر الغريب مسلما

ورغم أن ابن أبى الخير كان أحد شعراء عصره الكبار، وأحد الأصوات الصوفية العذبة التى شدت وصدحت بالحب الالهى إلا أنه لم يأتنا من شعره الكثير، لذا سنورد هنا جزءا من شعره، الذى جاء فى الترجمة الرائعة التى قدمها للعربية الدكتور الشواربي، وقد اخترنا لها عنوان «لن أفعل كسائر الناس»:

قلت: جدثنى عن جمالك.. من الذى يفوز بيهجته وسناه
فقال: أنا وحدى الفائز به.. مادمتُ فى الوجودِ والحياةِ
فإنى أنا وحدى لعاشقُ والمعشوقُ والعشقُ فى منتهاه
وإنى. أنا وحدى العينُ المبصرةُ والجمالُ الزاهى والمرأة!

لا تلمنى يا سيدى إذا احتسيتُ الخمرَ والشرابَ
وإذا قضيتُ فى الخمرِ والعشقِ أيامَ الشيبِ والشبابِ
فأنا فى إفاقتى أعاشرُ الأحبابَ وغيرَ الأحبابِ
ولكننى متى سكرتُ لا أجالسُ غيرَ الأصحابِ

حدثُ طبيبى عن آلامى الكثيرةِ الخافيةِ
فقال لى كُفْ الحديثَ ولا تتكلمِ إلا عن صفاتهِ العاليةِ
وحذارِ أن تفكرَ فى الدارِ الفانيةِ أو الباقيةِ

يا إلهى أنا فى عثرتى أرنحى عفوكَ ورضاكَ
وأنا فى ذلتى أبتغى رحمـمـتـك ونـدـاكَ
ولنْ أفعلَ كسائرِ الناسِ فأحتمى بهذا وذاكَ
وليس من حـامٍ ولا واقٍ فى العالمينَ سواكَ

إنشودة الساقى..

تجلى وجهه محبوبي
وهذا كل مطلوبي
به صبري هو الواهي
وموتي فيه مرغوبي
« النابلسي »

هذا الصوفي الجليل، كان شارحا - لا يباريه أحد -
للطرق الصوفية في عصره، كما كان صاحب أكبر عدد
من المؤلفات العظيمة التي تزيد على ١٨٨ مؤلفا. ورغم
أن أكثر هذه المؤلفات شهرة حتى يومنا هذه هو كتابه
”تعطير الأنام في تفسير الأحلام“، الذي قام فيه بتفسير
الرؤى بالاشراقات والمكاشفات، إلا أن باقي لا تقل قيمة
عن هذا الكتاب الذي يلتف حوله الناس في كل زمان
ومكان، من العالم الاسلامي الكبير.

ونذكر من مؤلفات هذا الشاعر الصوفي عبدالغني بن اسماعيل بن عبد الغني وشهرته
«النبلسي» (الحنفي الدمشقي النقشبندي القادري) الحديقة الندية في شرح الطريقة
المحمدية، وجواهر النصوص في حل كلمات الفصوص للشيخ محيي الدين بن عربي،
وكشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، وزهر الحديقة في ترجمة رجال
الطريقة، وایضاح المقصود في معنى وحدة الوجود، ومفتاح المعية في شرح الرسالة
النقشبندية، وتحقيق الذوق والرشف في معنى المخالفة بين أهل الكشف، والنظر في معنى
قول ابن الفارض عرفت أم لم تعرف، والسر المختبي في ضريح ابن العربي، والفتوحات
المدنية في الحضرات المحمدية، ورد المتين علي منتقص العارف مجيبي الدين، والفتح
الرباني والفيض الرحمانی، والصراط المثنوي في شرح ديباجات المثنوي، وبداية المريد
ونهاية السعيد، والعقود اللؤلؤية في طريقة السادة المولوية.

وللنبلسي ديوان رائع بعنوان «الحقائق ومجموع الرقائق» ويضم شعره الذي يضم
الكثير من المواويل التي تغلب عليها «المصرية» والتي ينشدها المنشدون في حلقات الذكر
ومنها علي سبيل المثال لا الحصر:

يا أمة العشق فز بالبصر والسمع	قوموا اتركوا الفرق عنكم واقبلوا الجمع
نور الشموع الذي يلمع عليكم لَمَعْ	من حرقة القلب قد سالت دموعُ الشمع

قوموا بنا كلنا نخرق حجاب الطبع
حتى نشاهد جمال الله يلمع لَمَع
وتتبع يا جماعة ما أتى في الشرع
ولا وجود لنا وهو الوجودُ الجمع

حبينا في بديع الحسن حيرنا
حكم علينا وبالهجران غيرنا
بين الحياة وبين الموت خيرنا
وبعد هذا بسوء الحال غيرنا

وشعر النابلسي الذي يفيض عذوبة وحلاوة، وينساب في روعة وسلاسة، يغوص في صريح المواجهيد اللالهيّة، والتجليات، ومنها هذه التجليات في وجه المحبوب، تلك المقطوعة التي ذاعت في حلقات الذكر عن المتصوفة والعشاق:

تجلي وجه محبوبي
فيا نار العدا ذوبي
جمال الأهيف الزاهي
به صبري هو الواهي
رأينا نوره أشرق
ولا نجد ولا أبرق
وهذا كل مطلوبي
بعيدا عنك مشروبي
وحسن الأغيد الباهي
وموتي فيه مرغوبي
فكنا برقه الأبرق
سوى الابريق والكوب

علينا الخمر قد دارت
وأطيار الهوى طارت
مليح الكون وافاننا
وحيا يوسف الأننا
بها البأبنا حارت
بترتيب وأسلوب
وزاد الحسن إحساننا
فقرت عين يعقوب

ومع ذلك، تبقي رائعة «النبلسي» التي شغلت الناس طويلا «أنشودة الساقى» معا
أعظم ما كتب من شعر لعذوبة ايقاعها ، وخفة روحها، وسحر موسيقاها.

ولعل روعة هذه الأنشودة كانت سببا مباشرا في خلود أبياتها حتى يومنا هذا، ولنر معا
كيف صاغ «النبلسي» أنشودته الخالدة:

ساقى ياساقى أسقني من خمرة الباقي
وأكشف لي عن قيدٍ إطلاقي آه يا ساقى، آه يا ساقى

أساتره راحت عمن عيني والزهرة فاحت
والسكره بالأسرار باحت آه يا ساقى، آه يا ساقى

اكشف لي عنك في ذاتي وافتح لي دلك
واجعلني يا حببي أنك آه يا ساقى، آه يا ساقى

افتح لي باب الحان واسمعي من طيب الألمان
وارشفني من كأس الملائن آه ساق، آه يا ساقى

من يشرب يسكر من خمري لما يتفكر
ولامنرور في علمه أنكر آه يا ياساقى، آه يا ساقى

لا يعرف أمرى إلا من يشرب خمري
أحشاؤه تصلي في جمري آه يا ساقى، آه يا ساقى

علم آخر من أعلام الصوفية، وأبرز ممثلي التصوف
المصري في القرن السابع الهجري. ينسب إلي
الاسكندرية حيث ولد وعاش فيها إلى أن غادرها إلى
القاهرة، بعد وفاة شيخه أبي العباس المرسى سنة
١٨١هـ، بعد أن صحبه اثني عشرة سنة، وتلقى عنه
الطريقة الشاذلية.

وقد كانت بداية ابن عطاء انكارا للتصوف، واعتراضا علي المرسى، ثم استمع إليه،
وأعجب به، وسرعان ما عكف عن جمع أقواله، وأستاذه الشاذلي، وترجم لهما، وحفظ
تراثهما، وصار داعيا للطريقة الشاذلية.

وقد كان ابن عطاء، وكنيته تاج الدين، أحد كبار أئمة عصره في التفسير والحديث، له
اليد الطولي في العلوم الظاهرة، والمعارف الباطنة، التي وهب لها حياته التي امتدت حتي
سنة ٧٠٩هـ.

ولابن عطاء مؤلفات كثيرة مثل «الحكم العطائية» التي تعد من عيون النثر الصوفي،
وأغلبها في صورة مخاطبات موجهة للمريد السالك، و«المناجاة العطائية»، وتعد من
روائع الأدب الصوفي، و«التنوير في اسقاط التدبير»، و«تاج العروس الحاوي لتهذيب
النفوس»، وهما عبارة عن مواعظ في التصوف.

وكما كان ابن عطاء رائعا في نثره، كان أيضاً رائعا في شعره الذي لطالما كان منبعاً
للزاهدين، وقبله للمتصوفين، ومرجعا للسائلين.

ومن شعر ابن عطاء سنقدم هنا قصيدة «ظهرت لكل الكون» وهي عبارة عن ابتهاج
إلي الله، يمتزج فيه الأمل بالرجاء:

وكلّى محتاجٌ، وأنت لك الغنى ومثلي من يُخطئ، ومثلك من يعفو
وأنت الذي أبدى الوداد تكرمُما ومثلك من يرعى، ومثلي من يجفو

وما طاب عيش لم تكن فيه واصلاً
ولم يصف، لا والله، أني له يصفو
عزمتُ علي أن أترك الكون كله
وأقفو سبيل الحب، والمُجْتَبِي يَقْفُو

* * *

شهودكمويجلو الحجاب لأنه
إذا حقق التحقيق صار هو الكشفُ
وما أحسنَ الأحبابَ في كُلِّ حالة
فلله ما يبدوا ولله ما يخفوا
وإن الأولي لم يشهدوك بمشهدٍ
قلوبهم عن نيل سر الهوي غلفُ
وأنت الذي أظهرتَ ثم ظهرت في
جميع المبادي مثلما شهد العرف

* * *

ظهرت لكل الكون، فالكون مُظهرُ
وفيهِ له أيضاً كما جاءتِ الصحفُ
فأى فؤادٍ عن فؤادك يتثنى
وأية نفسٍ لم يملها هواكمو
أيا صاحٍ هذا الركبُ قد سار مُسرِعاً
على حُبكم طراً، نفوسُ الوري وقفُ
أترضى بأن تبقي المُخَلَّفَ بعدهم
ونحنُ قعودُ، ما الذي أنت صانعُ
وهذا لسان الكون ينطق جهرةً
صريع الأمانى، والغرام ينازعُ
وأن لا يرى وجه السبيل سوى أمرى
بأن جميع الكائنات قواطعُ
رمى بالسري لم تختدعه المطامعُ

* * *

ومن أبصر الأشياء والحق قبلها
فغيب مصنوعاً بمن هو صانعُ
بواده أنوار لمن كان ذاهباً
وتحقيق أسرار لمن هو راجعُ

فقم وأنظر الأكوان والنور عمّها ففخر التداني نخوك اليوم طالعُ

* * *

وكن عبده ألق القياد لحكمه وإياك تدييراً فما هو نافعُ
أحكم تدييراً وغيرك حاكمُ أنت لأحكام الاله تنازعُ؟
فمحو ارادات وكلُ مشيئةٍ هو الغرض الأقصى فهل أنت سامعُ؟
كذلك سار الأولون فأدركوا على اثرهم فليسّر من هو تابعُ
على نفسه فليبك من كان طالباً وما لمست ممن يحب لوامعُ
على نفسه فليبك من كان باكيّاً أيذهب وقت وهو باللهو ضائعُ

* * *

بالنور أشرققت..



يا دولة العز الهني السرمدي
عزل المعوازل لا يزال مقطعي
فمتى أجرد سيف عزمي فاتكا
ويفوز «حلمي» رغم أنف المدعي
« ابراهيم حلمي القادري »

ابراهيم حلمي القادري هو شيخ الطريقة القادرية
النيازية، التي اشتقت اسمها من الجمع بين اسمي
(عبدالقادر الجيلاني - عبد الرحمن نيازي) والتي اتخذت
من مسجد القادرية بالاسكندرية مقرا لها.

وعلى مدى سنوات عمر القادري التي تقترب من سبعين عاما (١٣٢٢ - ١٣٩٠هـ)
كان الرجل مثالا فريدا من نوعه للصوفي الذي يغلب علي تصوفه الطابع العلمي
الرصين، البعيد عن كل مظاهر التخلف، التي نراها في بعض الطرق الصوفية المعاصرة.

وقد كانت شخصية الشيخ القادري تجمع ما بين الفقيه والمربي والمحقق والصوفي
والشاعر الذي جعل من شعره أداة للتعبير عن الموضوعات الصوفية بطريقة رائعة ،
ومحكمة، وغاية في البلاغة .

وشعر القادري ينطبق عليه - كما هو الحال، في معظم الشعر الصوفي - المثل القائل
«أطيب الكلام أصدق». فقد كان شديد الالتصاق بذاته، عظيم التوافق مع نفسه ، غلبت
عليه المحبة الالهية، فراح يتغني بها، وينشد أعذب الكلمات، وأرق الألحان.

وعلي الرغم من أن هناك قصائد صوفية خالصة للشيخ الصادري تذخر بها المكتبة
الصوفية، إلا أن له اطلالات شعرية علي العديد من القضايا التي شغلت مصر طويلا.

ومع ذلك، يبقى شعر القادري الصوفي مرآة صادقة لتصوف هذا الشيخ الجليل
الصحيح، واستغراقه في الحب الالهي.

ونورد هنا رائعته «بالنور أشرقت» التي كتبت أبياتها علي جدران مقامه، وهي مثال
واضح علي مدي رقة وعذوبة أشعار القادري الصوفية:

يا سيّدي أنت الغياثُ ومَفْزَعِي ولئن بدا للغير فهو ثمْنِي
لكم الولا ودخيلكم يشكو الضنا والعبد يكرم بالولاء الأرفع

وبكم عُرِفْتُ ولي لديكم حُجَّةٌ تسمو علي فلك الوجود الشَّرْعُ
والشمسُ تعلمُ أنني معهودكم ولها علوت وكان إمْر تطلُّعي

* * *

وبها ففسال الدمعُ مني تمدهُ زفِراتُ قلبي واصطلامُ الهُلَعِ
وبها فأرَجْتُ العطورَ يبيثُها خير الخلائق بالدعاءِ الأجمَعِ
منها علي الحالين كنتُ مناجيًّا أهل الهوي والساجدين الطُّوعِ
وعلي المعارج سيُّدي أرقِيتني وخلوتُ بالبيتِ المشيدِ ولادعي

* * *

أقرأتني قديمًا كريمَ خطابكم وبه انتشأتُ وكان أَمْنُ تضعضُعي
بالنور أشرقت الحروفُ وكنت لي عينا وقلبا واصطنعتَ مسامعي
وسيقنتني كأسًا فهِمْتُ مناجيا ونظمتُ أروع ما يكون ومامي
غذيتمو روعي وإنَّ فطيمكم حاشاه يسجد أو يقوم المُنتعِ
عذلُ وتبريحُ وأنه مُوجَع والصبر بعد بهائه لم يلمعِ
مَن للنزبل إذا شكَا من غُصَّةِ الا الذي مِن بَرِّه لَمْ يُمنعِ
ألف الدخيلُ مكارمًا من عطفكم وبها فقد طاب الشرابُ ومَرْتعي

* * *

والغيرُ أن مرَّت علي فخاطري تأبي الرفيع يُّهْرَجِ وبأَرْقَعِ
صورٌ وأشكالٌ ومتعةٌ ناظرٍ والوهمُ يخدع بالسرابِ ويلقعِ
ليت الغطاء عن العيون تكشفت فيبين ما أَلَفَتْ نفوسُ الطُّمَعِ
زرعُ بلا ثمرٍ وطيرٌ صامتٌ صَمَاءُ عَنْ لَحْنِ الشَّجَى وَسُجَعِ

وعوازلُ الأحرارِ خلفَ زيوفِها
يادولةَ العزِّ الهنيِّ السرمدي
فمتي أجردُ سيفَ عزمي فاتكًا
سُحرَ الفؤادِ بلطفكم وجمالكم
مازلتُ أهتفُ والهيامُ ملازمي
لن أنتهي حتى يكون لوصلكم
فلقد سلوتُ ولستُ يومًا ساليًا
جئتُ الرحابَ ونجدتي بولائمكم
عارًا إذا ما الغيرُ يُدي مني

* * *

خُلفُ الوعيدِ فشأنكم يا سادتي
والعودُ يُخمدُ باللقاءِ ووصله
يا آلَ يثربَ يا كرامَ
فبكمُ إلي المولي العزيزِ توسلي
بكمُ التوسلُ في الشدائدِ والندي

* * *

زُفُّوا الأمانَ إلي الكئيبِ فانه
ثوي الرجاءُ بكم وان بُعدَ المدي
منَّا على حرمِ الحبيبِ تحيةً
ومسلماً برقيقةٍ تحدو بها

* * *

جسبي علوا..

لكن تنازع شـــــــــــــــــوقي تارة أدبي
فأطلب الوصل لما يـضعف الأدب
ولست أبرح في الحــــــــــــــــالين ذا قلق
نام وشـــــــــــــــــوق له في اضلعي لهب
« ابن الخيمي »

هذا هو تلميذ ابن الفارض، والإبن الروحي لهذا الشاعر
الصوفي الأشهر. ولد شهاب الدين ابن الخيمي في
اليمن، أي أنه يمني الأصل، ولكنه عاش معظم حياته
التي إمتدت إثنين وثمانين عاما في مصر حتى توفي
سنة ٦٨٥هـ

وقد سار ابن الخيمي الذي كان يحيا على مقربة من ابن الفارض الذي كان يعامله
معاملة الوالد لولده، سار على نفس نهج أقرانه من شعراء الصوفية الذين سادوا القرن
السابع الهجري.

ومع ذلك ، فانه يبدو أن ابن الخيمي قد بدأ حياته شاعرا غزليا. ولعل ما يدفع إلي هذا
الاعتقاد هو تلك الأبيات التي يصف فيها المحبة التي لا تليق في ظاهرها بالمحبة الالهية:

أيا مَنْ سَلَوَا عَنَا وَمَالُوا إِلَى الْغَدْرِ	وَمَالَزَمُوا أَخْلَاقَ أَهْلِ الْهَوَى الْعُذْرَى
وَبَعْدَ حَلَاوَاتِ التَّوَاصُلِ وَالْهَوَى	جَنُوا مَرَّ طَعْمِ الْهَجْرِ مِنْ عَلَقَمِ الصَّبْرِ
إِذَا مَا رَجَعْتُمْ عَنْ مَحَبَّتِكُمْ لَنَا	مِشَاءً رَجَعْنَا عَنْ مَحَبَّتِكُمْ نَجْرِي
وَإِنْ كُنْتُمْ فِي الْجَهْرِ عَنَا صَدَدْتُمْ	فَفِي سِرِّنا عَنْكُمْ نَصْدُ فِي الْجَهْرِ
سَكَنْتُمْ فَوَّادِي مَبْرَةٍ وَرَحَلْتُمْ	فَأَصْبَحَ مِنْكُمْ خَالِيَا خَالِي السَّرِّ
وَقَالَ لِي الْعَذْلُ هَلْ أَنْتَ رَاجِعٌ؟	إِذَا رَجَعُوا عَنْ غَدْرِهم قُلْتُ لَا أَدْرِي!

ولابن الخيمي أشعار كثيرة في الحب الالهي، ويرى الباحثون أن شعره الصوفي
يجعله في مقدمة شعراء الصوفية الكبار لرقته، وعذوبته وإبتعاده عن التكلف والصنعة.

ونقدم هنا «بائية» ابن الخيمي الرائعة «حسبي علوا»:

يَا مُطَلِّبًا لَيْسَ لِي فِي غَيْرِ أَرْبُ	إِلَيْكَ آلُ التَّقْصِي وَإِنْ تَهَى الطَّلِبُ
وَمَا أَرَانِي أَهْلًا أَنْ تَوَاصِلَنِي	حَسْبِي عَلَوْا بِأَنِّي فَيْكَ مَكْتَسِبُ

* * *

لكن يَنَازِعُ شُوقِي تَارَةً أَدْبِي فَأَطْلُبُ الْوَصْلَ لَمَّا يَضْعَفُ الْأَدْبُ

ولست أبرحُ في الحالين ذا قلقٍ نامُ وشوقٍ له في اضلعي لهبٍ

* * *

ومدمعُ كلما كفكت صَيِّبَهُ صوتاً لذكرِكَ يعصيني وينسكبُ
ويدعى في الهوى دمعي مقاسمتي وجدي وحزني ويجري وهو مختضبُ
كالطرف يزعم توحيدَ الحبيب ولا يزالُ في ليله للنجم يرتقبُ

* * *

يا صاحبي قد عدت المسعدين فسا عدني على وصَّبي لا مَسَكَ الوصبُ
بالله إن جرت كَثباناً بذِي سَلَمٍ قفُ بي عليها وقُلْ لي: هذه الكُثْبُ
ليقضي الخدُّ من أجراعها وطراً في ثربها ويؤدي بعضُ ما يجبُ

* * *

وملُ إليّ البان من شرقِي كاظمة فلي إليّ البان من شرقِيها أربُ
وكلما لاح معنى من جمالهم لباه شوقٌ إلي معناه مُتَسَبُّ
أظلُّ دهري ولي من حبهم طربُ ومن أليمٍ إشتياقي نحوهم حربُ

* * *

لله قومٌ بجرعاء الحِي غُيْبُ جنوا على ولما أن جنوا عتَبوا
يا ربُّهم أخذوا قلبي فلم سخطوا؟ وانهم غصبوا عيشي فلم غضبوا؟
هم العُربُ بنجد مُدُّ عرفتُهم لم يبقُ لي معهم مالٌ ولا نَشَبُ
شاكون للحرب لكن من قدودهم وفاتراتُ اللحاظ السمرُ والقضبُ
فمما أَلَموا بحيٍّ أو أَلَمَ بهم إلا وغادرو على الأبيات وإنتهبوا
عاهدتُ في زمن البطحاء عهدي هوي إليهم وتمادت بيننا حَقَبُ
فما أضاعوا قديمَ العهد بل حفظوا لكن لغيري ذاك العهد قد نسبوا

* * *

من منصفِي من لطيفٍ منهم غَنجٍ لدنِ القوام لا سرائيل يتنسبُ

مُبَدَّلُ الْقَوْلِ ظَلَمًا لَا يَفِي بِمَوَا
تُبِينُ لثَغْفَتِهِ بِالرَّاءِ نَسَبَتَهُ
عِيدُ الْوَصَالِ وَمِنْهُ الذَّنْبُ وَالْغَضَبُ
وَالْمِينُ مِنْهُ بَزُورُ الْوَعْدِ وَالْكَذْبُ

* * *

مَوْحَدٌ فَيَرِي كُلَّ الْوُجُودِ لَهُ
فَعَنَ عَجَائِبِهِ حَدَّثٌ وَلَا حَرْجُ
مَلَكًا وَيَسْطُلُ مَا يَأْتِي بِهِ النِّسْبُ
مَا يَنْتَهِي فِي الْمَلِيحِ الْمَطْلُوقِ الْعَجَبُ
بَدْرٌ وَلَكِنْ هَلَالًا لَاحِ إِذَا هُوَ بِالْـ
وَرَدَى مِنْ شَفَقِ الْخُدَّيْنِ مُنْتَقِبُ

* * *

فِي كَأْسٍ مَبْسُمِهِ مِنْ حُلُورِيقَتِهِ
فَلَفْظَةُ أَبَدًا سَكْرَانٌ يَسْمَعُنَا
خَمْرٌ وَدُرٌّ ثَنَائِيَاهُ لَهَا حَبَبُ
مِنْ مَغْرَبِ اللَّحْنِ مَا يُنْسَى بِهِ الْأَدَبُ
تَجَنَّى لَوَاحِظُهُ فَيُنَا وَمِنْطَقَتُهُ
جَنَائِيَةٌ تَجْتَنِي مِنْ مَرَهَا الضَّرْبُ

* * *

حُلُو الْأَحَادِيثِ وَالْأَلْحَاضِ سَاحِرَهَا
لَمْ تَبْقِ أَلْفَظُهُ مَعْنَى يَرِقُ لَنَا
تُلْقَى إِذَا نَطَقَ الْأَلْوَاحُ وَالْكَتَبُ
لَقَدْ شَكَتْ ظَلَمَهُ الْأَشْعَارُ وَالْخُطَبُ
فِدَاؤُهُ مَا جَرَى فِي الدَّمْعِ مِنْ مَهْجٍ
وَمَا جَرَى فِي سَبِيلِ الْحُبِّ مُحْتَسَبُ

* * *

وَيَحِ الْمُنْتِمِ شَامَ الْبَرْقِ مِنْ إِضْمٍ
وَأَسْكَنَ الْبَرْقَ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ كَلْفٍ
فَهَزَّهُ كَاهْتِزَازَ الْبَارِقِ الْحَرِبُ
فِي قَلْبِهِ فَهَوٌ فِي أَحْشَائِهِ لَهَبُ
وَكَلِمًا لَاحِ مِنْهُ بَارِقٌ بَعِثْتُ
وَمَا أَعَادَتْ نُسَيْمَاتُ الْغَوِيرِ لَهُ
وَاهَا لَهُ أَعْرَضَ الْأَحْبَابُ عَنْهُ وَمَا
أُجِدْتُ رَسَائِلُهُ الْحُسْنَى وَلَا الْقَرَبُ

* * *

سقاني الحب..

أري للقلب نحوكم المجداباً
فكم ليلٍ بقربكم تقضى
وكم من نشوة وردت نهاراً
لأسمع من جنابكم خطاباً
إلي سحر سجوداً واقتراباً
فلا خطأ وعيتُ ولا صواباً
« ابن قضيب البان »

ربما لا يعرف الكثيرون أن أبو الفيض عبد القادر بن محمد (٩٧١ - ١٠٤٠ هـ) الذي اشتهر بإبن قضيب البان هو أحد أئمة التصوف الذين ولدوا ونشأوا في بلاد الشام (حلب) ثم وصلوا مصر فاستقروا فيها ليعلموا ذكركم، وينتشر صيتهم، ويتقلدوا ما يخلد اسمهم قروناً من الزمان.

وعندما استقر المقام بأبي الفيض في مصر، زاد انتاجه الصوفي المتميز حتى بلغت مؤلفاته العظيمة في التصوف أربعين كتاباً أشهرها «نهج السعادة»، و«الفتوحات المدنية»، و«نفحة البان»، و«المواقف الإلهية»، و«رسالة في أسرار الحروف»، و«شرح أسماء الله الحسنى»، و«مقاصد المقاصد»، و«عقيدة أرباب الخواص».

ولما كانت مؤلفات أبي الفيض تدل على رسوخ قدمه في التصوف والمعارف الإلهية، فقد بشره شيخ الاسلام يحيى بن زكريا القاضي بمصر وقتذاك بمشيخة الاسلام وبايعه على الطرق الثلاثة: النقشبندية والقادرية والخلوتية.

ولابن القضيب البان ديوان شعر على لسان القوم، وله تائية عارض بها تائية ابن الفارض، وكلماته تفيض بالجو الصوفي الروحاني، والرموز الصوفية المعروفة، التي تتجسد في شعر الصوفية.

وها هي ذي بعض من أبيات ابن قضيب البان الرائعة التي تروى جانباً من تصوفه، وما تعلقت به نفسه في الحب الإلهي:

سَقَانِي الْحُبُّ مِنْ خَمْرِ الْعِيَانِ فَتَبَهْتُ بِسُكْرَتِي بَيْنَ الدُّنْيَانِ
وَقُلْتُ لِرَفْقَتِي رَفَقاً بِقَلْبِي وَخَاطَبْتُ الْحَبِيبَ بِلَا لِسَانِ

شَرِبْتُ لِحُبِّهِ خَمراً سَقَانِي كَصَحْبِي فَاتَشَى مِنْهَا جَنَانِي

شَطِخْتُ بِشَرِبِهَا بَيْنَ النَّدَامَى وَرَشْدَى ضَاعَ مِمَّا قَدْ دَهَانَى

* * *

فَهَامَ أُولُو النِّهَى مِنْ بَعْدِ سَكْرَى وَغَابُوا فِي الشَّهْودِ عَنِ الْمَكَانِ
مُرِيدَى لَا تَخَفْ وَاشْطِخْ بِسَرَى فَسَقَدَ أَذْنَ الْحَبِيبُ بِمَا حَيَانَى

* * *

فَأَكْرَمَنِي وَتَوَجَّجَنِي بِتِلْكَ يَقُومُ بِسَبْرِهِ قُطْبُ الزَّمَانِ
وَأَمَرَنِي عَلَى الْأَقْطَابِ حَتَّى سَرَى أَمْدَى بِهِمْ فِي كُلِّ شَانِ
وَأُطْلَعَنِي عَلَى سِرِّ خَفَى وَقَالَ السَّنَنُ مِنْ سِرِّ الْمَعَانِ

* * *

فهرس

رقم الصفحة	الموضوع	٢
٤	إهداء..	
٥	تقديم..	
٨	شغلت قلبي - سمنون المحب.	١
١٤	يا واحد الحسن - عفيف الدين التلمساني.	٢
١٨	وارحمنا للعاشقين - السهروردي.	٣
٢٣	الوسيلة - عبدالقادر الجيلاني.	٤
٢٨	مريضة الأجفان - ابن عربي.	٥
٣٢	إلهي - أحمد البدوي.	٦
٣٦	أطيار الجنان - جلان الدين الرومي.	٧
٤٣	سقاني محبوبي - إبراهيم الدسوقي.	٨
٤٧	تعشقت نور الله - الشيخ علي عقل.	٩
٥٣	فطرة النفس - أبو العباس المرسى.	١٠
٥٧	بحار الهوى - الحلاج.	١١
٦٤	كيف السبيل؟! - الششتري.	١٢
٦٩	شكوي وجواب شكوي - محمد إقبال.	١٣
٩٣	كل المتني - ذا النون المصري.	١٤
٩٧	مالي سواك - أحمد الحلواني.	١٥

١٠١	مجاهدة النفس - الإنطாகي.	١٦
١٠٥	البردة - البوصيري.	١٧
١١٨	سلمي - الياضي	١٨
١٢٢	كأسي وخمري - رابعة العدوية.	١٩
١٢٧	ته دلالة - ابن الفارض.	٢٠
١٣٥	ليلي - نجم الدين.	١٢
١٣٩	لن أفعل كسائر الناس - ابن أبي الخير.	٢٢
١٤٢	إنشودة الساقى - النابلسي.	٢٣
١٤٦	ظهرت لكل الكون - ابن عطاء السكندري.	٢٤
١٥٠	بالنور أشرق - إبراهيم حلمي القادري.	٢٥
١٥٤	حسبي علوا - ابن الخيمي.	٢٦
١٥٨	سقاني الحب - ابن قضيب البان.	٢٧

عربية للطباعة والنشر
١٠٠٧ شارع السلام - أرض اللواء المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ - ٣٠٣٦٠٩٨

أحلى قصائد الصوفية



الحب الصوفي يتخذ فيه الشاعر من الذات
الالهية موضوعاً يدور حوله ، وفيه يصف الحب
ولذته ، وما يجده من لوعة وأسى أو قرب
ووصال . وكذلك ما يمر به في تصوفه من
مقامات وأحوال ، ومجاهدة مستمرة للنفس ،
وما يتعرض له من فيض رباني ، والهام قلبي ،
وسمو روحي .

وفي شعر الصوفيين يتجسد هذا الحب
الصوفي الالهي الغامر الذي نراه ينقسم شقين :
شق يتعلق بحب الله تعالى للعبد . . وآخر
يتعلق بحب العبد لله ، وكلاهما أفاض فيه
الشعراء الصوفيون .

وفي هذا الكتاب نحاول أن نسلط الضوء
على عدد من أشهر شعراء الصوفية ، الذين
قدموا للإنسانية نتاجاً شعرياً رائعاً وترثاً إنسانياً
خالداً آمليين من المولي عز وجل ان يحظي
برضاك ، واستحسانك .

مجدى كامل

